عقل

مع إيقاف التنفيذ



م: إيهاب شاهين



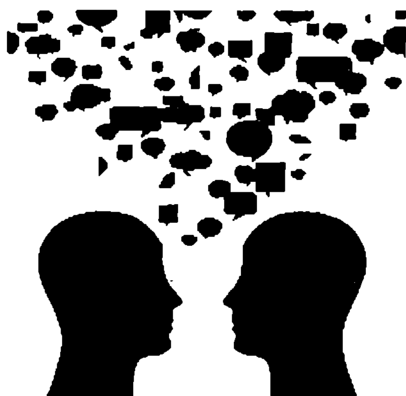
دار الشباب

دار الشباب

م. إيهاب شاهين

عقل

مع إيقاف التنفيذ



بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب: عقل مع إيقاف التنفيذ .

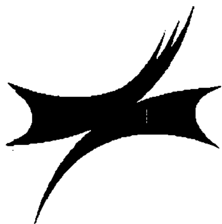
اسم المؤلف: م. إيهاب شاهين.

مقاس الكتاب: ١٤×٢٠

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٧

رقم الإيداع: ١٣١٦ / ٢٠١٧





دار الشباب

٠١١٤٠٤٧٩٨٩٧

إهداء



إلى مَن لهما عَلَيَّ بعد الله ﷻ حَقٌّ وفضل في كل أموري،،

أبي الحبيب وأمي الحبيبة عنوان البذل والتضحية وإنكار الذات أسأل الله تعالى أن يمتعهما بالصحة والعافية.

زوجتي الحبيبة التي تحمل معي أثقال الهم وأوجاع الحلم، صبر على المكاره وعطاء في الشدائد، أسأل الله تعالى أن يجزيها خير الجزاء وأن يشملني وإياها قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن هذا العصر، عصر الازدهار العلمي، وعصر المخترعات والمكتشفات، عصر الذرة، وعصر الأقمار الصناعية والمراكب الفضائية، عصر غزو الفضاء وعصر ظهور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؛ لتحقيق قول الله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. إن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى وقد تحدى الله ﷻ المشركين أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣، ١٤] ثم تحداهم بعشر سور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣، ١٤]. ثم تحداهم بسورة واحدة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن

كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] .

فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به، ثم سجّل على الخلق جميعًا العجز إلى يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٨] .

لقد كان الإعجاز العلمي واحدًا من جوانب التميز التي تفرد بها هذا الكتاب، وانكشافُ الحقائق العلمية التي يحتويها الكتاب للبشر جيلًا بعد جيل، هو جانب من جوانب استمرارية الرسالة التي نزل بها الكتاب، فهو ليس لجيل واحد تنتهي مهمته بعدها، أو تنقطع صلة الأجيال به، بل هو لكل الناس في كل جيل، يهديهم إلى ربهم، ويوجههم إلى الخير وإلى الحق، ويربيهم على المنهج القويم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون من آيات الإعجاز العلمي في خلق الكون والشمس والقمر والنجوم والسماوات، وبدء الكون ومصيره.

إن العلوم الفضائية، والعلوم الطبيعية لا زالت تحبو للتعرف على أصل الكون ونشأته والمادة الأولية التي تتكون منها الأجرام السماوية وطريقة تشكيلها، وقد أشار القرآن الكريم إلى حقائق كونية في غاية الوضوح، وَفَصَّلَ في آيات أخرى مراحل الخلق

والتكوين، ولم يصل العلم الحديث حتى الآن إلى معرفة أصل الوجود المادي للكون، على الرغم من توصل العلم إلى نجاحات كبيرة في مسائله التطبيقية والاستفادة من دراسة خصائص المادة، واستخدام الطاقات الكونية المختلفة، وعلى الرغم من محاولة العلم الحديث التعرف على اللبنات الأولى التي ينبني عليها الكون المادي، ومحاولة التعرف على الذَّرَّة، إلا أنه لم يخرج بطائل من دراسته هذه، فطالما أن الإنسان -أي إنسان- لم يشهد خلق السماوات والأرض، وكذلك لم يشهد خلق نفسه ولا خلق غيره، فكيف يعرف الحقيقة إذن؟ قال تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١].

لم يعرف هذا الأمر إلا عن طريق الوحي، وهذا دليل واضح على أن القرآن وحي من الله لرسوله محمد ﷺ، فَمِنْ أين لمحمد بن عبد الله ﷺ وهو الأُمي بعلم الذرة أن يعرف هذا العلم (١) قبل ألف وأربع مئة عام؟ قبل أن تظهر أي أدوات يتم التعرف بها على ما في الكون إلا عن طريق عليم خبير خلق هذا الكون.

لقد ظهرت طائفة شاذة في عهد النبي ﷺ تنفي وجود الله -تعالى- وتنفي أن يكون للكون خالق، فكان الرد عليهم من الله

---

(١) انظر المعجزة الخالدة براهين ساطعة وأدلة قاطعة. د/ علي محمد الصلابي.

-تعالى- كافيًا شافيًا، ولقد اغْتَرَّ أُنَاسٌ في هذا العصر بعلوم العصر، وظَنُّوا أن هناك تعارضًا بين دين الله والعلم، فزعموا كأسلافهم الأوائل أنهم توصَّلوا لحقيقة خلق الكون والحياة والإنسان، وأن وجود الله -سبحانه- وخلقه للكون والحياة إنما هو وَهْمٌ وخرافة، وراحوا يطيرون كل مطار بنظريات أقل ما يقال فيها أنها خرافة، ولكن أصبحت عند هؤلاء الملحدين عقيدة ومنهجًا؛ لذلك -من أجلها- كذبوا وَزَوَّرُوا وافتروا -كما سيأتي معنا- حتى يثبتوا خرافةً لا معنى لها. لقد أخذت هذه القضية مساحة كبيرة جدًّا في المجتمعات الاوروبية، وظَهَرَ صَدَاهَا داخل المجتمعات الإسلامية والوطن العربي، إن هذه القضية في بدايتها أو في نشأتها قضيةٌ هَشَّةٌ في المستوى الأول، وتأتي هشاشتها لأنها لم تُبْنَ على أصول علمية فضلًا عن أن تكون قد بنيت على أصول عقلية، ففي بدايات القرن العشرين ظهرت نظرية وصفَهَا أهلُها بأنها نظرية علمية، وهي لا تنهض أن تكون فرضية، تشبَّث بها القوم حتى يؤيدوا ما يذهبون إليه، وقد انتشرت هذه القضية، انتشارًا كبيرًا بين كثير من الشباب، بسبب الفراغ العقدي الموجود عند كثير منهم، أو للاختلال النفسي عند البعض، أو بغرض ممارسة الشهوات بصورة لا يُعَاتَبُ ولا يُؤَنَّبُ عليها مِن داخله.

وتأتي خطورة هذه القضية من كِبَرِ نِسْبَةِ الشباب الذين وقعوا في الإلحاد على مستوى بلدان العالم، حيث بلغت نسبتهم حوالي

مليار نسمة من الملحدين الآن، وهذا وفق آخر إحصائية موجودة على مستوى العالم[1]. إن النسبة داخل البلاد الإسلامية والعربية نسبة ليست بالكبيرة، لكنها تنبئ عن خطر كبير، يجب أن ننتبه إليه،

---

(١) أُجريت عدة استطلاعات عالمية شاملة حول هذا الموضوع أبرزها استطلاع قامت به مؤسسة غالوب الدولية سنة ٢٠١٥، حيث شارك في الاستطلاع أكثر من ٦٤٠٠٠ مشارك، أشار منهم ١١٪ أنه "ملحد بقناعة" في حين كانت النتيجة سنة ٢٠١٢ في استطلاع سابق ١٣٪ من أفراد العينة عرفوا عن أنفسهم أنهم "ملحدون بقناعة". وبحسب مسح قبل هيئة الإذاعة البريطانية، في عام ٢٠٠٤، وجد أن نسبة الملحدين كانت حوالي ٨٪ من سكان العالم. وتشير تقديرات أخرى قديمة إلى أن نسبة الملحدين حوالي ٢٪ من مجمل سكان العالم، وفي حالة أُضيف اللادينيون تصبح النسبة ١٢٪. ووفقًا لدراسات أخرى، فمعدلات الإلحاد هي من بين أعلى المعدلات نموًّا في الدول الغربية، ومرة أخرى بدرجات متفاوتة: الولايات المتحدة، على سبيل المثال، حوالي ٤٪ من سكانها ملحدون، في حين تصل في كندا إلى ٢٨٪.وفقًا لمعطيات مسح يوروبارروميتر ٢٠١٠ في الاتحاد الأوروبي حوالي ٢٠٪ من سكان الاتحاد الأوروبي لا يؤمنون "بأي نوع من الروح أو الله أو قوة الحياة".وفقًا لإحصائية معهد بيو لعام ٢٠١٠ وجدت أن اللادينيين (تضم الملحدين واللاأدريين) تصل أعدادهم إلى حوالي ١.١ مليار نسمة (١٦.٣٪) أي ثالث أكبر المعتقدات الدينية بعد المسيحية والإسلام؛ ويشكلون ٢١.٢٪ من مجمل سكان القارة الآسيوية، و١٨.٢٪ في أوروبا، و١٧.١٪ من مجمل سكان قارة أمريكا الشمالية، في حين تصل نسبة اللادينيين ٧.٧٪ في أمريكا اللاتينية و٣.٢٪ في أفريقيا جنوب الصحراء و٠.٦٪ في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وقد وجدت الدراسة عينها أنّ ستة دول ذات أغلبية لا دينية وهي: جمهورية التشيك (٧٥٪)، كوريا الشمالية (٧١٪)، إستونيا (٦٠٪)، اليابان (٥٧٪)، هونغ كونغ (٥٦٪) والصين (٥٢٪).

فالنسبة لا تتعدى المئات من الملحدين الحقيقيين؛ لأننا حين نـتكلم عن أنواع الإلحاد، سيتبين ان هنـاك ملحـدين، لكـن إلحـادَهم -في الحقيقة- ليس الإلحاد الذي سنتناوله بالرد والتفنيـد. لقـد قُـدِّرت هذه النسبة من عدة سنوات بالعشرات وقد أصبحت الآن بالمئات، فالتسارع في زيادة النسبة وإن كان في العموم ليس كبيرًا إلا إنه يُنبئ عن خطرٍ كبير في المجتمعات..

لذلك يجب محاربة هذا الفكر الذي بـدأ يـدب -بـين بعـض الشباب- في الجامعات والمنتديات والمقـاهي وغيرهـا حتـى يَنْهَـارَ تمامًا بإذن الله. وسوف يتبين للقارئ أن هذا الفكر في أصله خرافة، وعندما تذهب لِتهدمَ الخرافةَ بأصـولِ علميـةٍ تجـد صـعوبةً بالغـة، وتكمن الصعوبة في ذلك في جمود عقل مَنْ يتبنى هذا الفكر، فهـذا إن كان عنده عقل، فهـو عقـل مـع إيقـاف التنفيـذ وأنـه لا يُـسَلِّم بالأمور الشرعية، ولا يُسَلِّم حتى بالأمور العلمية الصحيحة.

كتبه/ إيهاب شاهين

طنطا - الغربية

١ ربيع ثاني ١٤٣٧هـ

٣٠ ديسمبر ٢٠١٦م



تعريف الإلحاد

ما هو الإلحاد؟ وهل نبت هذا الفكر حديثًا أم أن له جذورًا تاريخية؟ هذا ما سنتعرف عليه في السطور التالية:

الإلحاد: مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هذا معنى الإلحاد عمومًا، وسيأتي له تفصيل. والملحد عند تعريفه مطلقًا يقصد به (المنكِرُ لوجود خالقٍ لهذا الكون). أما كلمة الإلحاد، فقد وردت في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع: في سورة الأعراف ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، في سورة الحج ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. في سورة فصلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]. ولو أردنا أن نعرف معنى الإلحاد في المواضع الثلاثة، فسنجد أنها تشترك في معنىً واحدٍ، وهو الميل والانحراف عن الطريق المستقيم. فمعنى الإلحاد في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا الانحراف عن الطاعة إلى الوقوع في المعصية والتعدي، وهذا مَيْلٌ عن الطاعة وميل عن الطريق المستقيم.

وأما المعنى الثاني للإلحاد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فالمقصود من الإلحاد في أسماء الله وصفاته الميل أيضًا، والانحراف عن إثبات الأسماء والصفات بطريقة صحيحة كما جاءت في الكتاب والسنة، فَتَسْمِيَةُ الله بأسماء لم يُسَمِّهَا لنفسه، ولم يُسَمِّهَا له النبيُّ ﷺ، أو تشبيه الله تعالى بخلقه، نوعٌ من الانحراف، أو الإلحاد في أسماء الله أو اشتقاق أسماءٍ للأصنام وغيرها من أسماء الله ﷻ، أو نفي أسماء الله وصفاته، كل هذا نوع من الإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته. وتثبتُ الآية الثالثة من قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ . أن هناك إلحادًا في آيات الله ﷻ، وحتى نعرف المعنى المقصود، لا بُدَّ أن نعرف أن آيات الله تنقسم إلى قسمين، آيات كونية آفاقيه، مثل قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

النوع الثاني من الآيات، الآيات الشرعية، التي جاءت على

لسان الشرع في الكتاب أو على لسان النبي ﷺ، والإلحاد في الآيات الشرعية هو فرع عن الإلحاد في الآيات الكونية؛ لأن مَنْ يُلْحِدُ في الآيات الكونية كما سنبين معناه الآن هو بالتالي سيلحد في الآيات الشرعية.

ما معنى الإلحاد في الآيات الكونية؟

الآيات الكونية :مثل الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمحيطات والفِجاج والأنهار، كل هذه آيات كونية ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠].. فالنَّظَرُ في الآيات الكونية للاستدلال على وجوده تبارك وتعالى أمرٌ مأمور به شرعًا، فكيف يكون الإلحاد في هذه الآيات؟ يكون الإلحادُ بِأَحَدِ أمرين:

الأول: نسبة هذه الآيات إلى غير خالقها ﷻ، كأن يقول: إن الشمس والقمر والنجوم والبحار وغير ذلك من هذه الآيات، خَلَقَها أَحَدٌ غير الله ﷻ.

الثاني: أن يكون الإلحاد في هذه الآيات بأن ينسب هذه الآيات إلى غير خالق تمامًا، ويقول: إن هذه الآيات، أنشأتها الطبيعة أو أوجدتها الصدفة.

إذن؛ في الصورة الأولى سيقول: إن هناك خالقًا، ولكن ليس

هو الله، وينسبها إلى غير الخالق. والثاني: لا يُقِرُّ بوجود خالق أصلًا، ويقول: إنها أوجدت نفسها بنفسها، أو أن الطبيعة هي التي أوجدتها، وكلا النوعين هو إلحاد في آيات الله تبارك وتعالى.

النوع الثاني: **الإلحاد في الآيات الشرعية**. وهذا النوع سَيَقَعُ فيه كُلُّ مَنْ وَقَعَ في الإلحاد في الآيات الكونية بنوعيه اللذين ذكرناهما، فكلاهما لا يقر بالآيات الشرعية؛ بل يلحد فيها. الآيات الشرعية مثل وحي الله ﷻ، وجود رسل وأنبياء، وجود المعجزات، وغير ذلك من هذه الآيات الشرعية.. والذي لا يقر بوجود خالق أو يقول: إن هذا الكون وُجِدَ نتيجة الصدفة ونتيجة العوامل والقوانين الكونية، كلاهما لا يقر بوجود الآيات الشرعية ولا يعترف بوحي ولا أنبياء ولا رسل ولا غير ذلك. إذن؛ المقصود الآيات الكونية مَن الذي خلقها، وأوجدها؟

مسألة الخلق،خلق الكون في حَدِّ ذاته، وهذه أول قضية سنتكلم عنها وَنُفَصِّلُ فيها تفصيلًا طويلًا؛ لأنها مُرْتَكَزُ فكر الملحدين: مَنْ خَلَقَ الكونَ؟! مَنْ خلق الحياة، من خلق الإنسان..، وهذ أمر فطريٌّ وطبيعي عند كل إنسان وُجِدَ على هذه الأرض، أن يسأل هذا السؤال، إذن لدينا ثلاث قضايا مهمة جدًّا

بالنسبة للملحدين، وهي أساس الفكر الذي قام عليه الإلحاد، وهي:

○ خلق الكون.

○ خلق الحياة.

○ خلق الإنسان.

هذه هي النقاط الثلاث التي يتكلم عنها الملحدون وَيُسْهِبُون فيها بطريقة أو بأخرى.

مَنِ الذي خلق هذا الكون؟ وكيف تكون بهذا النظام الدقيق؟ ثم كيف كانت الحياة؟ ثم من أين جاء الإنسان من بعد وجود هذه الحياة؟.

عموم الملحدين يتكلمون في هذه الأصول الثلاثة، أما بالنسبة لمن يؤمن بالقرآن والسنة، وأنهما وَحْيٌ من عند الله تعالى، فهذه القضايا الثلاث محسومة لديه، لأن هذه القضايا الثلاث يستحيل الوصول إلى معرفتها إلا عن طريق وحي الله تبارك وتعالى، وكل المغالطات وكل الافتراءات والأكاذيب تحدث عندما يتكلم أحد في هذه النقاط من غير طريق الوحي، لأنه لا سبيل إلى معرفتها من غير وحي، لأن الناس لم يكونوا موجودين قبل خلق الكون والحياة والإنسان. فيستحيل معرفة تفاصيل هذه القضايا من غير وحي الله ﷻ.



والسؤال الآن: هل نبت هذا الفكر حديثًا أم أن له جذورًا تاريخية؟

مما لا شك فيه أن المطالع على الثقافات المختلفة يظهر له بوضوح أن هذا الفكر ليس حادثًا، بل له جذور قديمة، فكيف بدا ومتى ظهر؟

نشأة الإلحاد قديمًا:

وُجِدَ الإلحادُ منذ زمن النبي ﷺ، بل قبله، وكان هؤلاء الملحدون يُسَمَّوْنَ بالدهريين ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فالله ﷻ وصف هؤلاء في كتابه بأنهم لا يُقِرُّونَ بوجود إلهٍ خَالِقٍ لهذا الكون، ولا مدبر لهذه الحياة، ولا رازق لهذه الحياة بِمَنْ فيها وَمَنْ عليها، فالله ﷻ ذكر صفتَهم إجمالًا في كتابه.. وتجد أن هؤلاء كانوا طائفة أو ثلة قليلة جدًا في زمن النبي ﷺ، وقبل زمن النبي كانوا طائفة قليلة شاذة في المجتمعات؛ لأن الكفار الذين كانوا في زمن الأنبياء والرسل وحتى في زمن النبي ﷺ كانوا جميعًا يقرون بوجود رب خالق رازق مدبر محيي مميت، والآيات على ذلك كثيرة جدًّا مثل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]؛ إذن هم يُقِرُّونَ بكل هذه الأمور، فالكافرون الذين أُرسل إليهم النبي ﷺ كانوا يُقِرُّونَ بوجود خالق رازق مدبر محيي مميت، لكن الطائفة التي كانت تُنْكِرُ وجودَ رَبٍّ خالق رازق مدبر كانت طائفة قليلة جدًّا تسمى بالدهريين، كانوا يقولون: ما هذه الحياة الدنيا إلا عبارة عن أرحامٍ تَدْفَع وأرض تَبْلَع، وهذا كان اعتقادهم في الحياة، وأنها وجدت هكذا ولم يكن لها مُوجِد، ولم يكن لها رَبٌّ مُدَبِّرٌ سبحانه وتعالى، وقد رَدَّ النبي ﷺ على كل هذه الطوائف التي كانت تقول بأن هناك ربًّا خالقًا رازقًا، ولكن لا يجعلون له حق التشريع والتحريم، رَدَّ عليهم رَدًّا مفصلًا، ورد على الذين يقولون بأنه ليس هناك خالق للكون، وليس له مدبر، وليس هناك خالق لهذه الحياة، وليس هناك خالق للإنسان، بِأَدِلَّةٍ عقلية وفطرية ونقلية منشورة في الكتاب والسنة. أدلة عقلية في المقام الأول بعد الدليل الفطري جاءت في الكتاب والسنة، لأن هؤلاء لا يقرون بكتاب ولا سنة، فكان لا بد من خطابهم خطابًا عقليًّا، فكانت هناك أدلة عقلية كثيرة تبين لهم أن لهذا الكون خالقًا رازقًا مدبرًا، خلق هذه الحياة وخلق هذا

الإنسان، وهذه الأدلة أَمَرَنَا اللهﷻ أن نسير وننظر فيها حتى تدلَّنا على هذا الأمر العظيم، قال تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠] .

فاللهﷻ أمرنا أن نسيرَ في الأرض ونتفكرَ ونتدبر ونتلمس الأمورَ الحسية التي خلقها فتدلنا عليهﷻ . وليست هذه الآية كما يفهم بعض من يتكلمون في باب الإلحاد أن الأمر اجتهادي، والله أمرنا أن نجتهد اجتهادًا مطلقًا في البحث عن إدراك كيفية خلق الكون، لا، هذا كلام عارٍ من الصحة تمامًا، فاللهﷻ أمرنا أن ننظرَ في الآيات التي خلقها هوﷻ ، فتدل على خلقه وتؤكد أن إعادة الخلق بعد فنائه أمرٌ ميسور، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ وهذا بلا شك سَيَدُلُّنا على وجود الخالق سبحانه وتعالى، إذن؛ هذا الأمر سيأتي عن طريق الأدلة العقلية والأدلة الحسية التي ينظر الناس فيها ومن قبلها الأدلة الفطرية، وهذا أمر مهم جدًّا عند الاستدلال على وجود الخالق تبارك وتعالى بهذه الأدلة.

المنهج القويم في الرد على الملحدين:

يجب أن يكون المقام الأول الذي نتكلم عنه في هذا الاستدلال على وجود الخالق:

دليل الفطرة: وهو أعلى الأدلة التي يجب أن نتكلم بها ونبرزها إبرازًا كبيرًا؛ لأن الفطرة موجودة داخل كل إنسان، تدله على وجود الخالق تبارك وتعالى، وهذا من أعظم الأدلة الموجودة؛ لأن كل الناس خلقهم الله ﷻ على هذه الفطرة، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وقد ذكر النبي ﷺ في الحديث القدسي، قال تعالى: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ** -أي أخرجتهم عن دينهم- **وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**» [رواه مسلم] كل الناس خلقهم الله على هذه الفطرة على هذه الحنيفية السمحة.. ولكن صار مآلهم بعد ذلك بعد البلوغ أن صار منهم كفار ومنهم مؤمنون، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] صار بعد ذلك في المآل، لكن الخليقة كلها خلقت على هذا الأمر، على هذه الفطرة؛ لذلك يجب أن نبرزَ دليلَ الفطرة جدًّا، وهذا أول أمر يجب أن نردَّ به على الملحدين، ثم الأمر الثاني الذي يَتْبَعُه بعد ذلك.

الأدلة العقلية التي أمرنا الله ﷻ أن ننظرَ فيها ونتفكر فيها، والتي تدل على وجوده تبارك وتعالى. لَاحِظ أن هناك إجماعًا من

كل الطوائف الكافرة على مستوى الدنيا على إقرار بوجود إله، ولكنهم اختلفوا في صفات هذا الإله وعلاقته بالكون والحياة والإنسان، والشاهد أن هناك عاملًا مشتركًا بينهم جميعًا، هندوس، دروز، بهرة، عبدة فئران، جرزان، وغير ذلك، فقد اعترفوا بوجود إله، وإن كانت جميعها آلهة باطلة، لكن هذا هو الشاهد بخلاف هذه الثلة الشاذة التي تُنْكِرُ وجود إله.

الأمر الثالث في الرد على هؤلاء الملحدين: أن نأتيَ بالنظريات التي استندوا إليها ونفندها تفنيدًا ونثبت خطأها.

تنبيه مهم: بعض مَنْ يتكلم في هذا الباب يبدأ في الرد عليهم من خلال النظريات التي يتبنونها ويهدمها، وهي إن كانت طريقة نافعة، إلا أنها ليست الطريقة المؤثرة، والطريقة المؤثرة أن نبدأ بالأدلة الفطرية ثم العقلية ثم ننقد هذه النظريات التي يتبنونها، لأن هذه القضية حينما ظهرت في عهد النبي ﷺ ثم الصحابة والتابعين، كان الاستدلال على وجود الخالق تبارك وتعالى فطريًّا ثم عقليًّا، وهذا الأمر واضح جدًّا في قول الله تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] كما سيأتي بيانه.

نحن نتكلم عن أول قضية أثارها القوم، وهي قضية الخلق (خلق الكون- الحياة- الإنسان) وهي قضية تشغل كُلَّ حَيٍّ؛ لأن هذا الأمر -كما ذكرنا- أمرٌ فطريٌّ في كل إنسان، يسأل لماذا خُلِقْتُ وَمَنِ الذي خلقني؟ ومن أين جئتُ؟ وإلى أين المصير؟

ثلاثة أسئلة تُلِحُّ على أيِّ مخلوق في هذه الحياة. وفي دين الإسلام تَكَفَّلَ الله بالإجابة على هذه الأسئلة وَدَلَّنَا عليها، وَمَنْ سلك غير طريق الله ﷻ يسير في ضلال وحيرة وتَخَبُّطٍ وعشوائية مريرة.

كيف بدأ خلق الكون؟:

هذا السؤال الذي تبحث البشرية عن إجابة له، ومن استقرأ القرآن يَجِدُ الأمرَ جليًّا وواضحًا؛ فالمراحل التي مر بها خلق الكون واضحة كما في سورة (البقرة، والأنبياء، وفصلت، والنازعات)، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، و قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ

إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴿١١﴾ فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴾ [النازعات: ٢٧] إلى قوله: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فالله خلق الأرض في يومين، ثم قَدَّر فيها أقواتها في يومين، فهذه أربعة، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، فتم الخلق في ستة أيام كما قال تعالى: ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ [ق: ٣٨]، ثم دحى الأرض، وَدَحْيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال، والرمال والجماد والآكام. وكما قال ابن عباس: فإنَّ السموات كانت رَتْقًا لا تمطر، وكانت الأرض رَتْقًا لا تُنْبِتُ، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، وخلق الله الحياة على هذا الكون خلقًا مباشرًا (طيور - حيوانات - حشرات - أسماك) دون أن تمر بمراحل مجهولة أو حلقات مفقودة غير معلومة أو بدون خالق -كما يزعمون- مع أن هذا أمر يخالف المعقول، فإن الأرض

وحيواناتها وأشجارها وثمارها فيها الطيب والخبيث، فلو كان المخلوق يخلق نفسه. ما جعل نفسه خبيثًا، وأيضًا؛ لو كان المخلوق يخلق نفسه ويدبر شؤونها لاختار لنفسه البقاء والدوام ولم يَرْضَ لها بالموت والهلاك، واختار لها العز والشرف في كل زمان ومكان.فهذا خلق الكون والحياة واضح في كتاب الله تعالى، قال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] .

لقد أدرك العلم الحديث شيئًا جزئيًّا من حياة الحيوان بالمخالطة والتتبع والاستقراء، وتأكد لدى الباحثين أن كل حيوان ينتمي إلى فصيلة معينة تجمع بين أفرادها خصائص واحدة وتربطها فيما بينهم نظم ثابتة، فهل من خالق غير الله؟ سبحان الله وتعالى. وكذلك خلق الإنسان بَيَّنَهُ الله في كتابه والنبي ﷺ في سنته، كيف بدأ خلق الإنسان من مرحلة الطين والصلصال ثم الحمأ المسنون ثم نفخ الروح ثم أصبح إنسانًا على هذه الصورة التي كَرَّمَهُ الله بها.

خَلْقُ الإنسان:

خلق الله الإنسانَ بطريق تبهر العقولَ تدل على إبداع وإحكام متقن لاتتطرق إليه العشوائية أو يترك الصدفة تغيره وإليك مراحله.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] .

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠] .

كانت البداية خليةٌ واحدةٌ فقط في بطنِ الأم، وجودٌ عاجزٌ ومحتاجٌ إلى حمايـة، أصغرُ من حُبَيْبَةِ ملحٍ واحدة. وبعد فترة، انقسَمَتْ هذهِ الخليةُ وأصبحتِ اثنتَين، ثمَ انقسمت مرةً أخرى وأصبحت أربعَ خلايا، ثم ثماني، ثم ستَ عشرة. استمرتِ الخلايا بالتكاثر، ثم ظهرتْ أولًا قطعةُ لحم، ثم أخذت قطعةُ اللحم هذه شكلًا وأصبحت لها يدانِ ورِجلانِ وعينان، فالخليةُ الأولى كبُرت مئةَ مليارِ ضِعف، وأخذت وزنًا بستةِ مليارِ ضِعف. فالتي كانت قطرةَ ماءٍ فقط في السابق، أجرى اللهُ تعالى فيها معجزاتٍ عدة، فخلقَ منها الإنسانَ الذي يقرأ هذه الكلمات.

الناسُ المنغمسونَ في نُزعَةِ الحياةِ اليومية، يسيرونَ لا مبالينَ

بالمُعجزةِ المُهمَّةِ المُتحقِّقَةِ أمامَ أعينِهم، هذه المعجزةُ هي خلقُ الإنسان. تبدأُ أولُ مرحلةٍ في معجزةِ الخلقِ بنُضجِ خليَّةِ البويضةِ في عضوٍ في جسمِ المرأةِ يسمى المبيض، هناكَ رحلةٌ طويلةٌ أمامَ البويضةِ الناضجة، ستدخُلُ أولًا أنبوبَ فالوب وهنا ستقطَعُ مسافةً طويلةً حتى تصلَ إلى الرَّحِم، يبدأُ أنبوبُ فالوب بالحركةِ للإمساكِ بالبويضةِ الناضجةِ قبل خروجِها من المبيضِ بمُدَّةٍ قصيرة، ويُحاولُ إيجادَ خليةِ البويضةِ عن طريقِ لَمساتٍ خفيفةٍ على المبيضِ، ونتيجةَ هذا البحثِ يجدُ أُنبوبُ فالوب" البويضةَ الناضجةَ ويسحبُها لِداخِله، وحينئذٍ تبدأُ رِحلةُ خليةِ البويضة.

يتوجبُ على البويضةِ قطعُ طريقٍ طويلٍ عَبْرَ أُنبوبِ فالوب"، لكن ليس لها أيُّ عُضوٍ يؤمِّنُ لها قَطْعَ هذا الطريقِ كالزعانفِ أو الأرجل، ولهذا خُلقَ لرحلتِها نظامٌ خاصّ، فقد وُظِّفَت ملياراتُ الخلايا التي توجدُ في السطحِ الداخلِي لأنبوبِ فالوب" لإيصالِ البويضةِ إلى الرَّحِم.

تحرِّكُ الخلايا هذه الشعيراتِ الموجودةَ على سطحِها، المسماة بـ "cilia" نحوَ الرَّحِمِ باستمرار، وهكذا تُحمَلُ خليةُ البويضةِ من يدٍ إلى يدٍ إلى الجهةِ التي يجبُ ذهابُها نحوَهُ كحِملٍ ثمينٍ جدًا.

عندَ ملاحظةِ هذهِ الشعيراتِ نجِدُها قد نُسِّقَت في المكانِ والشكلِ الذي يجبُ أن تكونَ عليهِ ضِمنَ خُطَّةٍ ذكيةٍ جدًا، وتقومُ بحركةِ نقلٍ معًا وإلى الجهةِ نفسِها وكأنَّها آلةٌ مبرمجَة، فلو لم يقُمْ قِسمٌ من هذهِ الخلايا بمهمته أو قامَ بنقلِها إلى جهاتٍ مختلفةٍ لن تصِلَ البويضةُ إلى هدفِها، ولا تتحققُ الولادةُ أبدًا.

ولكنَّ خلقَ الله تامّ، فَكُلُّ خليَّةٍ تنفِّذُ مُهِمَّتَها التي أُوكِلَت إليها دونَ أيِّ خطأ، وهكذا تتقدَّمُ إلى المكانِ المُجَهَّزِ خصوصًا لأجلِ البويضةِ أي إلى رَحِمِ الأم. لكنَّ خليةَ البويضةِ المنقولةِ بِدِقَّةٍ بِهذا الشَكلِ عُمرُها لا يتجاوزُ أربعًا وعِشرينَ ساعة، وتموتُ ما لم تُلَقَّح في هذهِ المُدة. وتحتاجُ إلى مادَّةٍ حياتيةٍ للتلقيح: النُطفةُ التي تأتي من جسمِ الرجل.

تصميمُ النطفة:

النُطفةُ: خليَّةٌ موظَّفَةٌ لإيصالِ معلومَةِ الذَّكَرِ الوراثيَّةِ إلى خليةِ البويضةِ في الأنثى. إذا دقَّقنا عن كثب، نرى جهازًا مُصَمَّمًا بشكلٍ خاصٍّ لحملِ هذهِ النُّطفة، فالقِسمُ الأماميُّ للنُطفَةِ مغطى بِدِرعٍ واقٍ وتحتَهُ دِرْعٌ ثانٍ، وتَحتَ هذا الدِرعِ الثاني أيضًا يوجدُ ما يشبِهُ الشاحِنَةَ التي تحمِلُ النُطفة. ويوجد داخلَ هذه الشاحنة ثلاثةٌ

وعِشرونَ صبغيًا عائدًا للرجل. جميعُ المعلوماتِ العائدةِ لجسمِ الإنسانِ وأدقِّ تفاصيلِه مخفيٌّ في هذه الصبغيات، ولظهورِ إنسانٍ جديدٍ يجبُ أن تَتَّحِدَ الصِبغياتُ الثلاثةُ والعِشرون الموجودةُ في نُطفَةِ الرجلِ مع الصبغيات الثلاثةِ والعِشرين الموجودةِ في بويضةِ المرأة، وهكذا سيظهَرُ أولُ تكوينٍ لجِسمِ الإنسانِ من ستةٍ وأربعين صبغيًا. تصميمُ الدِّرعِ الموجودِ في الجِهةِ الأماميَّةِ لِلنُّطْفَة سَيَحمي هَذا الحِملَ الثَمينَ طوالَ هذه المسافةِ الطويلةِ من جميعِ أنواعِ الأخطار.

وتصميمُ النطفةِ غيرُ محصورٍ في هذا فقط، فهناكَ في القِسمِ الأوسطِ للنُّطفةِ محرِّكٌ قويٌّ جِدًّا، ويرتبِطُ بِطَرَفِ هذا المحرِكِ قسم ذيل للنطفة. القوةُ التي ينتجُها المحركُ تدوِّرُ الذيلَ كالمِروحةِ، وتؤمِّنُ للنطفةِ قطعَ الطريقِ بسرعة. ولوجودِ هذا المحرِّكِ لا بُدَّ من وَقودٍ لتشغيلِه، وقد حُسبت هذه الحاجَةُ أيضًا فرُتِّب لهُ الوقودُ الأكثرُ اقتصادًا أي سُكر الفركتوز على السائل الذي يحيط بالنطفة. وهكذا فقد تَمَّ توفيرُ وَقود المُحَرِّكِ خلالَ الطريقِ الذي ستقطَعُهُ النُّطفَة.

بفضلِ هذا التصميمِ الكامِلِ تَقطَعُ النطفةُ طريقًا نحوَ البويضةِ بسرعة. عندَ ملاحظةِ حجمِ النُطفةِ بالنِسبةِ إلى المَسافةِ التي قطعتها تظهَرُ حركتُها السريعةُ التي تُشبه قارِبَ السباق. هذا الجهازُ

المدهشُ ينتَجُ بمهارَةٍ كبيرة، حيثُ يوجدُ داخلَ كلِّ خِصيةٍ -مركـزُ إنتاجِ النُّطَف- أقنيةٌ مجهريةٌ يصلُ طولُها إلى خمس مئة متر. الإنتاجُ في هذهِ الأقنية يُشبِهُ تمامًا نِظامَ السِّكةِ الحديديةِ المستخدَمَةِ في المعامِلِ الحديثة، فأقسامُ النُّطفةِ من دِرعٍ ومحركٍ وذيلٍ تُركَّبُ معَ بعضِها على الترتيب. وفي النهايةِ تظهَرُ روعةُ الهندسة الكاملة. علينا التفكيرُ ولـو قليلًا في هذهِ الحقيقة.. كيف عَرفتِ الخلايا التي لا وعـيَ لهـا طريقـةَ تجهيزِ النُطفةِ بشكلٍ يتناسبُ معَ جِسمِ الأُمِّ رغمَ جَهلِها بِها تمامًا؟

كيف تعلمتِ النُطَفُ صُنعَ الـدِرعِ والمُحَـرِّكِ والـذيلِ حَـسَبَ حاجَـةِ جِـسمِ الأُم؟ بـأيِ عقـلٍ تتركَّـبُ هـذه القِطَـعُ بالترتيـبِ الـصحيح؟ مـن أيـن تعلَـمُ أنَّ النُطَـفَ سـتحتاجُ إلى سـكرِ الفركتوز؟ كيف تعلّمت صنعَ محرِّكٍ يعملُ بسكَّرِ الفركتوز؟

هناكَ جوابٌ واحدٌ فقط لكلِّ هذهِ الأسئلة:

النُطَفُ والسائلُ المرتَّبُ داخلَها خَلَقَـهُ اللهُ ﷻ بـشكلٍ خـاصّ لاستمرارِ نَسْلِ الإنسان. الدكتور البروفيسور جواد بابونا الطبيـب في كليـة الطـب في جامعـة استانبول، المختصُّ بـأمراضِ النـساءِ والتوليد، والوزيرُ السابق علَّقَ على خصائصِ النطفةِ بقولِه: "خلايا النطفةِ منتَجَةٌ في جِسمِ الأب، أمَّا مُهِماتُها فـلا تتحقَّـقُ إلا في جِـسمِ الأم، ولا تملِكُ أيُّ نُطفَةٍ منذُ تاريخِ البشريةِ العودةَ إلى جسمِ الأبِ

مرةً أخرى بعدَ إنهاءِ مهمتِها في جِسمِ الأمِّ لإخبارِ الخلايا المنتِجَةِ لها عن مهمتِها وما فعلتْهُ وعنِ الأحداثِ التي واجهتها.

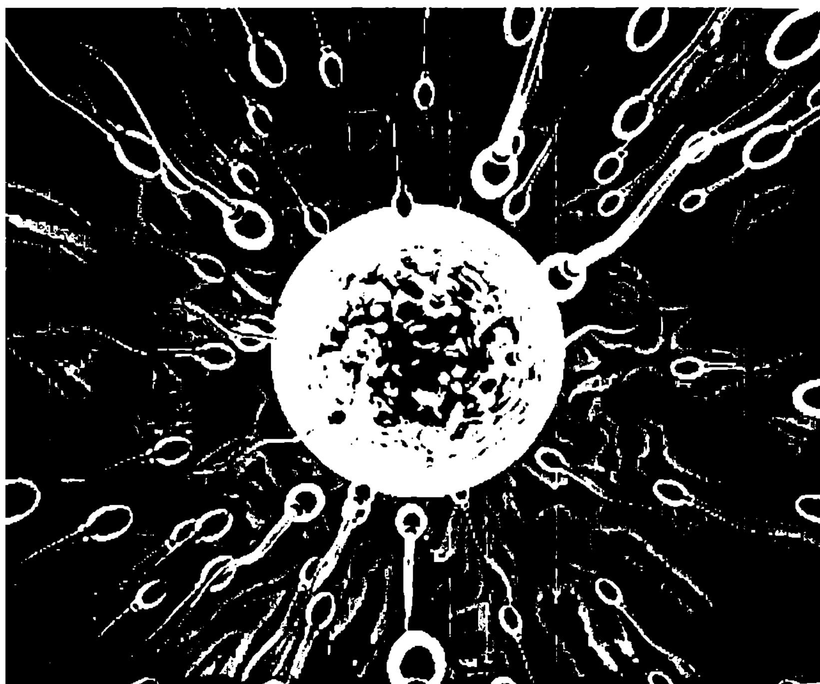
في تلكَ الحالةِ، كيفَ تكونُ خليةُ النُّطفةِ ذاتَ بنيَةٍ مختلفةٍ تمامًا عن آلافِ أنواعِ الخلايا الموجودةِ في بنيةِ الأب، من أينَ تعرِفُ خليةُ النُّطفةِ أن تذهبَ بالحِملِ الوراثِي الذي أخذته من الأبِ إلى بنيةٍ ستُرزَقُ الحياةَ بعدَ مُدَّةٍ بحملِ دِرعٍ في مقدمتِه؟ من أينَ تعرِفُ خليةُ النُّطفَةِ أنَّهُ يلزَمُها ثَقبُ ذلكَ الغشاءِ الرقيقِ فتأخذُ معَها أسلحةً كيميائيةً مرتَّبَةً خلفَ الدِرع؟

كما ترَون، لا يمكنُ أن تكونَ جميعُ عناصِرِ هذه الآلية، الحوادث التي تكلفت بها، والمُهمات التي تقوم بها النطفةُ مصادفةً، ولا يمكِنُ أن تكونَ المعرفةُ جاءت عن طريقِ التَّكرار. هذا دليلٌ واضحٌ على أن اللهَ ألهمَها هذه المهمةَ وعلَّمَها كيفيةَ الإتيانِ بها على أكملِ وجه. هذا التصميمُ الخارِقُ في النطفةِ وَحدَهُ مُعجِزَةُ خَلقٍ كبيرةٌ، وهكذا يشدُّ اللهُ تعالى انتباهَنا إلى خلقِ هذهِ النطفةِ في آيةٍ قرآنيةٍ بقولِه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ .

[الواقعة: ٥٨، ٥٩]

رحلة النطفة الشاقة:

يُرسَلُ إلى رَحِمِ الأمِّ في المرةِ الواحدةِ ما يقارِبُ المئتين وخمسين مليونِ نُطفَة، حُدد هـذا العـددُ بهـذهِ الكَثـرةِ بـشكلٍ خـاصّ؛ لأنَّ النطفَ تواجِهُ أخطارًا مميتةً بمجردِ دخولِها إلى الرَّحِم.



فهناكَ خليطٌ حمضيٌّ كثيفٌ في العضوِ التناسلِي للمرأةِ يمنَعُ وصولَ البكتريا، هذا الخليطُ قاتلٌ بالنسبةِ للنطفِ أيضًا، فبعدَ دقائقَ عِدَّة يُغطى جدارُ الرحمِ بملايينِ النطفِ الميتة، وبعدَ عدةِ ساعاتٍ يكونُ قسمٌ كبيرٌ منَ المئتين وخمسين مليون نطفةٍ ميتًا. الخليطُ الحمضيُّ هذا مهمٌّ جدًّا لصِحَّةِ الأمِّ وقويٌّ جِدًّا بحيثُ يستطيعُ قتلَ كلِّ النطفِ الداخلةِ إلى الرحِمِ بسهولة. في هذهِ الحالةِ، لن يتحققَ التلقيحُ أبدًا، وينتهي نسلُ الإنسان. لكنَّهُ أخذَ الاحتياطَ الضروريَ أيضًا، فأثناءَ إنتاجِ النُّطَفِ في جِسمِ الرجلِ يضافُ إلى السائِلِ المحتوي على النُّطَفِ الخليطُ الذي يحمِلُ خاصيةً قُلوية (Base)، هذا الخليطُ يزيلُ قِسمًا من تأثيرِ الخليطِ الحمضِي في رحمِ الأم، وبفضلِ هذا الخليطِ تستطيعُ آلافُ النطفِ الوصولَ إلى مدخَلِ قناةِ فالوب مرورًا برحِمِ الأم.

ولقد لاحظ العلماء أن النطف جميعًا تتجه إلى جهة واحدة، إذًا كيف تجدُ الجهةَ الصحيحةَ هذه؟ من أينَ تعرِفُ مكانَ البويضة التي بحجم حبيبةِ المِلح؟.. تجدُ النطفةُ مكانَ البويضةِ لأنَّ نظامًا كاملاً آخرَ خُلِقَ وتدخَّلَ لأجلِها.

حيث ترسِلُ البويضةُ إشارةً كيميائيةً لتشُدَّ إليها النطفَ البعيدةَ عنها بما يقارب خمسةَ عشَر سنتيمترًا، فالنطفُ بفضلِ هذهِ

الإشارةِ تتَّجِهُ نحوَ البويضة، باختصار... تدعو البويضةُ إليها النطفَ التي لا تعرِفُ عنها أيَّ شيء، ولم تقابِلها من قبلُ أبدًا، وتتراسلُ الخليتانِ الغريبتانِ اللتانِ لا تعرفانِ بعضَهما.

هذه الحقيقةُ دليلٌ آخرُ أيضًا على خلقِ البويضةِ والنطفةِ بتناسقٍ كبيرٍ معَ بعضِهما. اللقاء الكبير.

وفي النهايةِ، تستطيعُ مئاتُ فقط الوصولَ إلى البويضة، غيرَ أنه لم ينتهِ السباقُ حتى الآن، فلا تقبل البويضةُ إلا نطفةً واحدةً فقط، ولهذا يبدأُ سباقٌ جديد، هناكَ عائقانِ مهمانِ جدًّا أمامَ النطفِ: الطبقة الحامية التي تقتل جميع أنواع الجراثيم التي تحاول الاقتراب من البويضة، وقشرة البويضة المتينة التي يصعب ثقبها إلى حدٍ كبير.

خلق في النطفة أنظمة خاصة لاجتياز هذين العائقين، فهناك الأسلحة المخفية التي خبأتها النطف تحت طرف الدرع الصلب إلى هذه اللحظة، إنها أكياس الأنزيم المذيبة و التي تسمى بالهيالورونيديز، هذه الأكياس ستثقب العائق الأول الذي على أطراف البويضة أي الطبقة الحامية، بإذابتها، فعندما تجتاز النطفة هذه الطبقة، وتتقدم في الطبقة يتآكل درعه شيئًا فشيئًا ثم يتفتت ويتبعثر، أما تفتت درعه هذا فهو جزء من الخطة المنفّذة

الكاملة؛ لأنه بفضل هذا التفتت ستبدأ أكياس الأنزيم الثانية الموجودة داخل النطفة بالظهور. وهذا يؤمن اجتياز آخر عائق يواجه النطفة، أي: ثقب قشرة البويضة.

هذه الحوادث التي تحققت دون أن يدركها الإنسان، وهذا التخطيط الدقيق لكل مرحلة من هذه المراحل دلائل واضحة على خلق الإنسان من قِبَلِ الله تعالى.

بالنتيجة نجد أن الذي قام بعملية تلقيح البويضة هو عبارة عن نطفة واحدة تمكنت من الوصول إلى البويضة وثقبت جدارها الخارجي، ولقد أشار النبي ﷺ قبل أكثر من ألف و أربع مئة سنة إلى هذه الحقيقة بقوله: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَ شَيْءٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ» [رواه مسلم][1].

---

(1) Why Are 250 Million Sperm Cells Released During Sex? "Every sperm is sacred. Every sperm is great. If a sperm is wasted, God gets quite irate, " goes the song from Monty Python's movie The Meaning of Life. If the lyrics strike you as funny, it's most likely because calling a sperm cell "sacred" sounds ridiculous when men can produce so many of them .

العلق:

تقوم نطفة الرجل بالاتحاد مع البويضة، فتصبح المعلومة الوراثية للنطفة والبويضة إلى جانب بعضها بعضًا. وتتحقق واحدة من أكبر المعجزات على وجه الأرض، حيث يتحقق اختلاط معلومتين وراثيتين واجتماعهما لتكوين إنسان جديد، وتحقق اللقاء... ربما يكون تصديقه صعبًا، إلا أنه يوجد داخل هذه الخلية جميع المعلومات العائدة للإنسان الذي لم يُولَد بعد. عين الطفل الذي سيولد، جلده، لون شعره، وشكل وجهه، وجميع الخصائص الفيزيائية له مشفّرة هنا. إلا أنه ليس مظهره الخارجي فقط؛ بل حُدد هيكله وأعضاؤه الداخلية جلده، عروقه، وحتى أشكال خلايا

In fact, the average male will produce roughly 525 billion sperm cells over a lifetime and shed at least one billion of them per month. A healthy adult male can release between 40 million and 1.2 billion sperm cells in a single ejaculation.. In contrast, women are born with an average 2 million egg follicles, the reproductive structures that give rise to eggs. By puberty, a majority of those follicles close up and only about 450 will ever release mature eggs for fertilization.

الدم التي تدور في عروقه إلى عددها العائدة للجنين إلى جميع التفاصيل.خصائص الإنسان في السّن السابعة وحتى خصائصه في سِن السبعين كل شيء وضحت وكتبت داخل هذه الخلية. تقوم الخلية بعد التلقيح بمدة قصيرة بتصرف آخر محيّر جدًّا، تنقسم وتكوّن خليتين حديثتين، ثم تنقسم هذه الخلايا مرة أخرى وتصبح أربعة، فقد بدأ الآن تكوين إنسان جديد. ولكن... لماذا تتخذ الخلية قرار الانقسام هذا؟ لماذا تتكلف وتقوم بمهمة تكوين الإنسان؟ مَنْ أعطى الخليةَ معلومة هذا التكوين؟ هذه الأسئلة توصلنا إلى وجود الله تعالى صاحب العلم والقدرة اللا متناهيتين، خالق الخلية، والإنسان الموجود داخل الخلية، والعالم الذي يوجد فيه الإنسان وجميع الكون، خالقهم من العدم. هذه البيضة الملقحة ليست إلا كتلة دائرية مكونة من الخلايا الشبيهة ببعضها، وليس لها أي نتوء أو ممسك خاص يُؤَمِّنُ لها التعلق بمكان ما، فإذًا كيف تستطيع التمسك بجدار الرحم؟وهذا أيضًا قد حُسب له حسابه.....عند وصول البيضة الملقحة إلى رحم الأم يتدخل نظام خاص آخر.

البيضة الملقحة التي وصلت إلى رحم الأم، تُفرز الخلايا الموجودة في السطح الخارجي للبيضة الملقحة إنزيمات خاصة تُذِيب

جدار الرحم، وبذلك تتمسك البيضة الملقحة بالرحم بشدة وتنجو من سقوطها خارج الرحم. وجود الخلايا على سطح البيضة الملقحة في المكان اللازم وإفرازه الإنزيم اللازم يُوَضح مرة أخرى كون خلقه بدون نقصان. بفضل هذه الخلقة الكاملة تنغرز البيضة الملقحة في جدار الرحم.

هذا المخلوق الجديد الذي يكبر بتمسكه بالرحم يُسَمَّى منذ الآن بالجنين. هذه الحقيقة التي اكتشفتها البيولوجيا الحديثة ذُكِرَت في القرآن الكريم، فعندما يذكر الله تعالى أول مرحلة للطفل في رحم الأم يستخدم كلمة العَلَق، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق: ١ - ٣].

أما كلمة العلق بالعربية فيُقَالُ للشيء المتمسك بمكان والمتعلق به، وحتى أصل كلمة العلق يستخدم للتعريف عن بعض الطفيليات التي تلتصق بالجلد وتمصّ الدم من ذلك المكان.

استخدم البيان الإلهي كلمة العلق لتعريف البيضة الملقحة في رحم الأم في الوقت الذي كانت المعلومات البيولوجية للناس ضئيلة جدًّا.

التمايز (مرحلة المضغة):

تعيش في عالمنا الذي هو كوكب مليء بالحياة أنواع لا تُحصى من الكائنات وحيدات الخلية، جميعها تتكاثر عن طريق الانقسام وتكوّن نسخة عنها أثناء انقسامها.

الجنين النامي في رحم الأم يبدأ الحياة بخلية واحدة تتكاثر هذه الخلية بنسخ نفسها كذلك.

تنمو هذه الكتلة وتتمايز وتتخصص بالتدريج لتكون براعم الرأس والدماغ والقلب والأطراف والعظام، وَتُسمى هذه المرحلة علميًّا بـ "EMBRYO" وبالنظر إلى شكلها فهي تشبه قطعة لحم أو لبان ممضوغة، ولقد سَمَّاها القرآن الكريم بلفظ مُضْغَةٍ، قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

وهنا لولا تدخل تنظيم خاص لَلَزِمَ من انقسام خلايا المولود ظهور كتلة لحم مؤلفة من خلايا متشابهة وليس إنسانًا. لكنه لا يحصل شيء كهذا؛ لأن الخلايا ليست عاطلة إلى هذا الحد، بل تبدأ النطفة والبويضة بعد الالتقاء بأسابيع بالتمايز عن بعضها بأمر خفي أُعْطِيَ لهم، إن هذا التغير يعتبره علماء الأجنة معجزة هائلة، فالخلايا التي لا وعي لها بدأت بإنشاء الأعضاء الداخلية والهيكل والدماغ.

ففي هذه المرحلة تبدأ خلايا الدماغ بالتكوُّن.....تنمو خلايا الدماغ ويزداد عددها بسرعة، وفي نهاية هذا الإنشاء يصبح الجنين ذا ١٠ مليارات من خلايا الدماغ. كُلُّ خلية جديدة تتصرف بمعرفة سابقة إلى أين ترجع، ومع أي الخلايا يجب أن ترتبط، كل خلية تجد مكانها بين احتمالات لا حصر لها، وترتبط مع الخلايا التي يجب أن ترتبط معها. يوجد في الدماغ ١٠٠ تريليون صلة وصلة لتستطيع الخلايا صنع تريليونات الوصلات هذه بالشكل الصحيح، يجب أن تملك عقلًا يفوق عقل الإنسان بكثير، غير أنه ليس لهذه الخلايا أي عقل. ليس فقط خلايا الدماغ، بل كل واحدة من الخلايا المتكاثرة بانقسامها داخل الجنين تقوم برحلة من أول مكان تكوّنت منه نحو النطفة التي يجب أن تتواجد فيها، وكل واحدة تجد المكانَ المخطط لها، وهنا تقوم بالارتباط بالخلايا التي يجب أن ترتبط معها.حسنًا.. هذه الخلايا التي ليس لها أي وعي.. فمن يتتبع هذه الخطة الذكية؟

يجيب الدكتور البرفيسور جواد بابونا على هذا السؤال بقوله:

"كيف تقوم جميع هذه الخلايا المتشابهة مع بعضها برحلة فجأة وكأنها تَلَقَّتْ أمرًا من مكان واحد، وتذهب كلها إلى أماكن مختلفة

تعمل على تكوين أعضاء مختلفة؟ هذا يُبين بشكل واضح أن هذه الخلايا المتماثلة خلايا لا تعرف ما ستفعله، الخلايا متماثلة وال‍ـ "DNA" الوراثية كلها، تشكّل بعضها الدماغ، وبعضها القلب، وبعضها تشكل الأعضاء الأخرى.

إن الذي يُوَجِّهُهَا هو الله وَحْدَه خالق السماوات والأرض. يَدُومُ التكوين في رَحِمِ الأم، تبدأ بعض الخلايا المتغيرة بالانقباض والانبساط فجأة.

وبعد ذلك تجتمع مئات الآلاف من هذه الخلايا في مكان واحد، لِتكوِّن القلب..... هذا القلب سيستمر بالخفقان طوال العمر. بعض الخلايا المستقلة عن بعضها تتماسك ببعضها، وَتُقِيمُ ارتباطات فيما بينها، وتشكل خلايا العروق. ترى... من أين تعلمت هذه الخلايا وجوب تكوين العروق وكيفية القيام بهذا؟

هذه من الأسئلة التي لم يوجد لها جواب في الأوساط العلمية.

في النهاية تصنع خلايا العروق نظامًا أنبوبيًّا رائعًا ليس عليه أي ثقب أو شق.

السطح الداخلي للعروق أملس، وكأنه صنع بيد صانع ماهر.

نظام العروق الرائع هذا سيبدأ بعد مدة بنقل الدم لجميع

جسم الجنين ويبلغ طول شبكه العروق كلها (٤٠٠٠٠كم)، وهذه المسافة تساوي الطول الكامل لمحيط الأرض.

يستمر النمو في بطن الأم دون توقف، وتصل أطراف الجنـين في نهاية الأسبوع الخامس إلى حال تشبه النتوء كما في الصور.

هذا النتوء سيصبح يدًا بعد مدة، تبـدأ بعـض الخلايـا بـصنع الأيدي. إلا أنه يقوم قسم من الخلايا بعد مـدة بعمـل محير جـدًّا: تقوم الآلاف من الخلايا بتضحية جماعية.

ترى.. لماذا تقدم الخلايا أنفسها؟هذه التـضحية تخـدم هـدفًا مهمًّا جدًّا، أجسام الخلايا الميتة عـلى خـط معـين ضروري لتكـوين الأصابع، وتأكل الأخرى الخلايا الميتـة وتـشكل في هـذه المنـاطق الفراغات اللازمة بين الأصابع.

حسنًا.. لماذا تقوم آلاف الخلايا بتضحية كهـذه؟ كيـف تقـوم الخليـة بالتـضحية بنفـسها ليـصبح الطفـل المولـود ذا أصـابع في المستقبل؟ من أين عرفت الخليـة أنهـا بهـذه التـضحية تخـدم هـدفًا كهذا؟ كل هذا يوضح مرة أخرى أن جميع الخلايا المكوّنة للإنـسان موجّهة من قِبَلِ الله تعالى.

وفي هذه الأثناء تبدأ بعض الخلايـا بـصنع الـساق. لا تعـرف

الخلايا أن الجنين سيحتاج إلى المشي على الأرض، رغم ذلك تكـون الساق والأرجل.

بعد أربعة أسابيع .تتكون حفرتان في جانبي رأس الجنين، أمـر تصديقه صعب، لكـن في هـذين الحفـرتين ستُنشأ العينـان. يبـدأ تشكل الأعين في الأسبوع السادس وتعمل الخلايا طـوال الأشـهر داخل خطة لا يستوعبها العقل وتكّون أقسام العين المختلفة بِتَتَابُعٍ رتيب. تصنع بعـض الخلايـا القرنيـة وبعـضها الحدقـة، وبعـضها العدسة، تقف كل خلية عند وصولها إلى حـد انتهـاء القـسم الـذي يتوجب عليها صنعها، وتكون العين المكونة مـن ٤٠ طبقـة مختلفـة بشكلٍ كامل... وهكذا فالعين التي تُعَدُّ أفضل كاميرا في العالم تُخلق في بطن الأم من العَدَم، فقد حُسب أن الإنسان الذي سـوف يُولَـد عندما يفتح عينيه سيقابل عالمًـا ملونًـا خُلقـت العـين مـن أجلـه، متناسبًا مع هذا العالم. وقـد حـسبت الأصـوات التـي سيـسمعها، والأنغام التي سيـستمع إليهـا أيـضًا، والأذن التـي ستـسمع هـذه الأصوات كذلك تنشأ في بطن الأم، حيث تُـشكِّل الخلايـا أفـضلَ جهاز لَاقِطٍ للصوت على وجه الأرض. وهذا يذكرنا مـرة أخـرى أن السمع والبصر من النعم الكبيرة التي منحها الله تعالى للإنسان، بذلك يتفضل الله ﷻ في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ

بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

لقد أذهلت الآيات القرآنية التي تتكلم عن خلق الإنسان والأحاديث النبوية الشريفة العديد من جهابذة علماء العصر ومن بينهم البروفسور كيث مور أستاذ علم الجينات في الجامعات الأمريكية، وصاحب أشهر كتاب عن الجنين في العالم. لقد قال مور: "لقد كان نبيكم إنسانًا بسيطًا و رجلًا أميًا، وقد عاش و مات في القرن السابع الميلادي، أي في وقت لم يكن فيه لعلم الأجنة أساس و لا خبر، كما لم يكن هناك مجاهر على الإطلاق، ولم يكن علم البصريات قد ظهر إلى عالم الوجود بعد، فَمِنْ أين له بهذه المعلومات العلمية المذهلة؟ و كيف شاهد اندماج نطفة الذكر بنطفة الأنثى؟ وكيف عرف أن في نطاف الرجل نطف وأن في ماء المرأة نطفة؟ يذكر الله تعالى الناس كهؤلاء في القرآن الكريم بقوله:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ

جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1] [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

نجد مما سبق أن القرآن والسنة بَيَّنَا مرحلة خلق الكون وخلق الحياة وخلق الإنسان، بِمَا أبهر العقول وأذهل العلماء. وقد أَوْدَعَ الله ﷻ في كتابه الأدلةَ الفطرية والأدلة العقلية والحسية التي تدل على ذلك دلالة واضحة جدًّا، ومن يخرج عن هذا الطريق لا بد أن يَضِلَّ وسَيَقَعُ في تَخَبُّطٍ وحيرة شديدة جدا كما سنرى حيرة هؤلاء في هذه القضايا الثلاث، والاستدلال بقضية الخلق على وجود الخالق ﷻ هذا الذي خاطب به الله ﷻ الكفار حتى يثبت هذا الأمر. لما سمع جبير بن مطعم ﷺ هذه الآية قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] قال: كاد قلبي أن يطير. يقول ابن عباس ﵄ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي من غير رب، هذه الآية لما سَمِعَها جبير بن مطعم قال: كاد قلبي أن يطير، لماذا؟ للدلالة العجيبة الموجودة فيها، أم خلقوا من غير رب من غير شيء أم هم الخالقون! هم خُلقوا هكذا أم خلقوا أنفسهم، لو قال الإنسان أنه

(١) الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان. د/ محمد نبيل النشواتي.

خلق نفسه فأين كان من مئة سنه؟! وأين كان أبوه و جده و جد جده، أين كانوا من ثلاث مئة أو أربع مئة سنة، وستظل هذه السلسلة إلى أن يصل إلى أن هناك خالقًا موجدًا لهذا الخلق، فلذلك قال جبير بن مطعم لما سمع هذه الآية: كاد قلبي أن يطير! جاء الاستدلال أشد ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٦] إذا كانوا عاجزين عن خلق أنفسهم، فالعجز عن خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الإنسان أشد ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] فنفى عنهم علم ذلك لأن الله لم يشهد الناس خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١] .. فَلِمَ يشهدنا الله تعالى على خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسنا، فكيف نعرف ذلك؟ لن نعرف ذلك إلا عن طريقه هو، عن طريق الخالق الذي خلقنا. فكان الإعجاز الأشد: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٦] .. فمن لم يُوقِن بهذا فلا سبيل إلى إيقانه! حتى إن العلماء حينما كانوا يستدلون على وجود الخالق ويُسألون عن ذلك، كانت الإجابة سهلة يسيرة عن طريق أمر عقلي يدل على وجود خالق: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ومنها قصة الأعرابي الذي سُئِلَ عن وجود الخالق، كان الرد العقلي واضحًا جدًّا، قال: سبحان الله! إن البعر يدل على البعير، وإن الأثر لَيَدُلُّ على المسير، فأرض ذات فِجاج، وبحار ذات أمواج، وسماء ذات أبراج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير! فاستدل على وجود الله بآثار خلقه، هذه الأمور كيف وجدت بهذه الدقة وهذا النظام! بحار ذات أمواج، سماء ذات أبراج، أثر يدل على مسير، طالما يوجد أثر إذًا هناك مَنْ مَشَى، وطالما أن هناك بعرًا إذَنْ هناك بعير، وطالما أن هناك خلقًا إذَنْ هناك خالق، فتلك قضية محسومة. والأئمة جميعا كأبي حنيفة والشافعي وأحمد جميعهم -رحمهم الله- استدلوا بما خلق الله ﷻ على وجوده تبارك وتعالى بآثار محسوسة.

وقد سُئِلَ الشافعي رحمه الله تعالى عن وجود الخالق ﷻ فقال هذا ورق التوت، طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم (الحرير) وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك، وهو شيء واحد - وسُئِلَ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ذلك، فقال: ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إِذِ انْصَدَعَ جداره

فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الديك. فالإمام أحمد كان يستدل بالبيضة، بيضة صماء شكلها من الخارج أبيض، ومن الداخل أصفر، يخرج منها بعد عدة أسابيع أو أيام مخلوق صغير، كيف خرج هذا المخلوق إلا بتدبير من الخالق ﷻ، فاستدل بوجود البيضة التي يخرج منها الكتكوت على وجود الله تعالى. كذلك، كيف يخرج الحرير، ومن الذي علم أن هذا يخرج حريرًا، وهذا يخرج بعرًا؟ هذا كله يدل على وجود الله ﷻ. لما ظهر هؤلاء القوم في عصر الإمام أبي حنيفة وقالوا بعدم وجود خالق للكون ولا للأنفس، اسْتَدَل باستدلال جعلهم يُقِرُّونَ أمامه بالخالق ﷻ، لما جاء إليهم متأخرًا عن الوقت الذي تعاهدوا أن يتقابلوا فيه على ساحل من السواحل قالوا: لماذا أتيت متأخرًا؟! فقال: تأخرت لأمر في غاية العجب رأيته، قالوا اِيتِ بما عندك، قال: رأيت سفينة ماخرة في البحر تأتي وتذهب وتجيء محملة بالبضائع، تُنزل البضائع وتحمل غيرها ولا يُوجَدُ عليها مَنْ يفعل ذلك، وتذهب ماخرة في عرض البحر، ثم تأتي مرة أخرى، قالوا: لقد جُنِنْتَ يا أبا حنيفة! أتزعم أن سفينة كبيرة ماخرة تأتي ببضائع بهذا الكم وتُنزل هذه البضائع وتُحمل دون أن يكون لها قبطان ودون أن يكون لها عُمال أو

مَنْ يسيرها؟! قال: أتعجبون من ذلك ولا تعجبون من هذا الكون المملوء بالبحار والأنهار والجبال والفِجَاج والمحيطات، ألا يكون له صانع! ألا يكون له خالق! فَبُهِتَ القومُ ولم يستطيعوا الرَّدَّ عليه. لكن بعض المتحذلقين في هذا الزمان أراد أن يستدل على الخلق بأنه نفسه هو يستطيع أن يخلق، فكان يجادل أحد المسلمين، فقال: أنت متعجب من أنني أنكر وجود خالق وأنتم تُعَظِّمُونَه هذا التعظيم، وأنا أستطيع أن أخلق مثله كما تزعمون أنه خالق، قال له: كيف ذلك؟ قال له: تَعَالَ معي، وأخذ قطعةَ لحم ووضعها في قطعة قماش ثم فتح ثقبًا في شجرة، ثم وضع فيها قطعة اللحم الملفوف بالقماش في هذا الثقب وَسَدَّهُ، وقال له: نلتقي بعد عدة أسابيع وَسَأُرِيكَ ما خلقته، فَذَهَبَا وبعد عدة أسابيع فتح الثقب فوجد اللحم قد تعفن، والعفن هذا تجمع عليه الدود، فقال: أنا خلقتُ هذا الخلق، فالمسلم لم يجادل معه كثيرًا وانتقل من حجة إلى حجة، فقال: إن الخالق يعرف صفات خلقه وعدد خلقه، وَمَن منهم ذكر ومَن أنثى، وَمَنْ سَيَمُوتُ قبل مَن، ومن سيبعثه بعد مَن، فهل تعلم عدد هذا الدود الذي تزعم أنك خلقته، هل تعلم من منه ذكر وَمَن أنثى؟ قال: لا أعلم! قال: هل تعلم مَنْ مات منه الآن وَمَنْ لم يَمُت؟ قال: لا! قال: هل تعلم اسماءهم؟ ولم يُجِبْ على أي سؤال،

فقال: كيف تزعم أنك خلقت هذا الخلق؟! استدلالات يسيرة جدًّا من خلال الأمور الحِسية على وجود الخالق تبارك وتعالى وهذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ . قال قتادة: مَنْ تَفَكَّرَ في خَلْقِ نفسه عَلِمَ أنه إنما لينت مفاصله للعبادة، وكذا ما في ابتداء الإنسان من الآيات العظيمة - إذ كان نطفة ثم علقة ثم مُضْغَةً ثم عظامًا إلى أن نفخ فيه الروح - وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] والآيات في هذا الباب العظيم من الاستدلال بالمخلوقات على وجود خالقها وقدرته وعظمته أكثر مِن أَنْ تُحصى وَأَجَلُّ من أن تستقصى، كذلك من آمن من المستشرقين الملحدين كانت هذه الأدلة والتفكر فيها سببًا من أسباب إسلامهم، ماذا قال المستشرقون عن الكون وخالقه؟ يقول "أفلاطون": "إن العالم آية في الجمال والنظام، ولا يمكن أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقية، بل هو صنع عاقل، توخى الخير، ورتب كل شيء عن قصد وحكمة".

ويقول "ديكارت": "إنِّي مع شعوري بنقصٍ في ذاتي، أُحسُّ في الوقت نفسه بوجود ذاتٍ كاملة، وأراني مضطرًّا إلى اعتقادي؛ لأنَّ

الشعور قد غَرَسَتْه في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحليَّة بجميع صفات الكمال؛ وهي الله".

ويقول "أناكسا غورس" أحد فلاسفة اليونان الأوائل: "من المستحيل على قوة عمياء، أن تبدع هذا الجمال، وهذا النظام اللذين يتجليان في هذا العالم، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يُحَرِّكُ المادةَ هو عقل رشيد، بصير حكيم".

ويقول ديكارت -أيضًا: "أنا موجود فَمَنْ أَوْجَدَنِي ومن خلقني؟ إنني لم أخلق نفسي، فلا بد لي من خالق. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود، وغير مفتقر إلى مَن يُوجِده، أو يحفظ له وجوده، ولا بد أن يكون مُتَّصِفًا بكل صفات الجمال. وهذا الخالق هو الله بارئ كل شيء "ويقول باسكال: "إن إدراكنا لوجود الله، هو من الإدراكات الأولية، التي لا تحتاج إلى جدل البراهين العقلية، فإنه كان يمكن أن لا أكون، لو كانت أمي ماتت قبل أن أُولَدَ حَيًّا، فلست إذن كائنًا واجب الوجود، ولست دائمًا ولا نهائيًا، فلا بد من كائن واجب الوجود، دائم لا نهائي، يعتمد عليه وجودي، وهو الله الذي نُدْرِكُ وجودَه إدراكًا أَوَّلِيًّا، بدون أن نَتَوَرَّطَ في جدل البراهين العقلية، ولكن على الذين لم يقدر لهم هذا

الإيمان القلبي أن يسعوا للوصول إليه بعقولهم.. ". فلم يجحد وجوده تعالى من جحده من أعدائه إلا على سبيل المكابرة، ولهذا قال تعالى في كفرهم بآياته: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

كانت هذه قصة الإلحاد قديمًا ومعنى الإلحاد في كتاب الله ﷻ.

أسباب نشأة الإلحاد في العصر الحديث..

نشأة الإلحاد في العصر الحديث في الحقيقة تبدأ منذ عدة قرون، حيث كان رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية قد تَبَنَّوا آراء لأرسطو وبطليموس على أساس أن أرسطو كان عالما كبيرًا عندهم، وبطليموس كذلك، فتبنوا آراءهم العلمية حول الكون ونشأته، وارتباط العلاقات بين المجرات والكون والشمس والقمر والجاذبية وغير ذلك، وتَبَنَّوا الآراء العلمية لهم في الفيزياء والكيمياء والكون وغير ذلك وألحقوها بمفاهيم مقدسة، وبناء على هذه المفاهيم التي جعلوها مقدسة -أي أنها كلام الرب الإله- كَوَّنُوا صورةً عن الإنسان في هذا العالم، وتلك كانت البداية. ومن خلال المفاهيم المقدسة التي تَبَنَّوها عن أرسطو وبطليموس

وجعلوها داخل الكنيسة مُتبَنَّاةً، وأن الرب تحدث بها بنوا عليها عدة أمور، منها:

- أن الأرض هي مركز الكون، فالأرض ثابتة في مركز الكون والشمس والقمر وكافة الكواكب تدور حولها، وهذا ما تَوَصَّلَ إليه أرسطو وبطليموس في بداية الأمر، أن المجموعة الشمسية كلها بالكواكب والشمس والقمر كل شيء يدور حول الأرض، وطبعًا سَنَعْلَمُ بعد ذلك أن هذه النظرية خطأ تمامًا؛ لأن الأرض من ضمن الكواكب التي تدور أيضًا.

- أن الإله خلق العالم عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد وأن العالم سينتهي عام ٤٠٠٤ بعد الميلاد، لماذا هذا التاريخ تحديدًا؟

قالوا: لأن هذا التاريخ يتوسطه ميلاد المسيح عليه السلام، لِذَلِكَ اختاروه، وكيف استنتج الكهنة هذا التاريخ؟ لماذا لا يكون مثلًا ٢٠٠٤ قبل الميلاد؟ استنتجوا هذا التاريخ عن طريق جمع أعمار الأجيال المتتالية من أبناء آدم عليه السلام إلى أن وصلوا إلى زمانهم هم، فقالوا: إن هذا يُقَدَّرُ بـ ٤٠٠٤ سنة، فيكون هذا بداية خلق الإله للعالم، وبعد ٤٠٠٤ سنة بعد الميلاد سينتهي هذا العالم.

- أن العالم يسير وفقًا لخطة إلهية محكمة غَائِيَّة، أي أن هناك

غاية وحكمة من خلق هذا الكون، فكل المخلوقات موجودة لغاية ولم توجد هكذا، فالشمس مثلًا خُلِقَتْ لِتُوَفِّرَ النورَ وهكذا كل شيء مخلوق له هدف وغاية من خلقه.

- أنه يوجد وراء هذا الخلق كله وهذه الحِكَم والغائية إله خالق لهذا الكون، فَيُقررون ويثبتون وجود إله خالق.

- أن العالم عبارة عن نظام أخلاقي وقيم أخلاقية يحددها الإله، فاثبتوا أن هناك غائية وأن هناك قيمًا وأخلاقًا وأن الإله الذي حددها.

- أن رجال الكنيسة هم الواسطة بين الإله وبين الناس في قبول التوبة والحصول على صكوك الغفران ودخول الجنة أو دخول النار وغير ذلك، وهذا أخطرهم في الحقيقة وهو الذي قلب الدنيا بعد ذلك.

فصار للكنيسة في هذا التوقيت بسبب ذلك سلطان كبير جدًّا جدًّا، موضوع صكوك الغفران أن أي أحد يفعل أيَّ ذنب أيًّا كان، يذهب فقط عند البابوات يُعْطِيهِ صَكًّا بعد الاعتراف بالخطيئة: إنك اعترفت ونحن قَبِلْنَا تَوْبَتَك، فبذلك يكون الرب قد قبل توبتك؛ لأنهم الواسطة بين الناس وبين الرب، وَمَن يريد شراء

مقعد في الجنة، المقعد بكذا، ومَن حُكِمَ عليه أنه في النار ويريد أن يفر منها يبيع مقعده في النار ويشتري واحدًا في الجنة بكذا، تخيلوا كَمَّ الملايين التي جمعوها! وفي العصر الحديث، جاء رجل مِن أتباع الكنيسة، لكنه عرف خطأه ورجع عما كانوا يفعلونه، وتاب، فقال لهم: أريد أن أشتريَ صكوك النار، بكم تبيعونها؟ قالوا: هل تستطيع أن تدفع ثمنها؟ قال: نعم، فقالوا: المبلغ المطلوب كذا، فدفع المبلغ وأخذ كل صكوك النار، وبعد أن أخذ الصكوك في يده نظر إلى الناس وقال لهم: افعلوا ما شئتم ولا ترجعوا الى الكهان والرهبان والباباوات، فإنه لا مكان لكم في النار، فقد أغلقتها بعد أن اشتريت صكوكها، وبالطبع وُضِع الباباوات في موقف ومأزق حرج جدًا! ماذا سيفعلون بعد ذلك.

فالخطورة هنا أنهم كانوا يتكلمون باسم الإله، ومعنى أنهم قرروا تلك المعتقدات -وهي أكثر من ذلك لكن ما ذكرناه على سبيل المثال- فمعنى أنهم قرروا هذا الأمر أن الإله هو الذي قرر ذلك، فماذا لو اكتشفوا خطأ معتقد منهم بعد ذلك؟ إذن معناه أن الإله هو الذي أخطأ ويؤدي إلى نسف فكرة الإله عندهم، فالكنيسة بدأت تتكلم باسم الإله بقوة شديدة جدًّا حتى على الملوك أنفسهم كان الملوك في هذه القرون الوسطى بدأ يكون

سلطانهم تحت سلطان الكنسيين حتى أن الكنيسة كانت تعزل أو تعين الملوك، تقول هذا الملك يحكم ولاية كذا، وهذا نعزله ونضع مكانه فلانًا، فأصبح لهم سلطان كبير على الإقطاعيين وأصحاب الأموال والملوك في العَزْلِ والتعيين.

لماذا كان يقبل الناس تَسلُّط الكنيسة بهذه الصورة؟ للغريزة الفطرية داخل الناس بسلطان الدين، لقد كان للكنيسة رأي في قضية المرأة وغير ذلك حتى أنهم ظَلُّوا في بحث طويل جدًّا يبحثون عن ماهية المرأة، هل هي مخلوق مثل الرجل أم مخلوق آخر؟ فَمَرَّةً يقولون: إنها مخلوق عجيب غير الرجل، ومرة يقولون: إن المرأة مخلوقه من مادة غير خلق الرجل. إهانة شديدة للمرأة، حتى توصلوا في النهاية بعد بحث مُضْنٍ لسنين طويلة إلى الحقيقة النهائية من وجهة نظرهم، فقالوا: إن المرأة مثل الرجل في الخلق، لكنها ما خُلِقَت إلا لخدمة الرجل فقط.

إهانة عظيمة جدًّا للمرأة، وابتذال شديد، لقد كانت المرأة عندهم عبارة عن سلعة تُباع وَتُشترى، ولقضاء الشهوات وتصريفها. لقد اقتصر دورها عندهم على خدمة الرجال فقط.

بدأ سلطان الكنيسة يَطْغَى، وانتحال تلك الصورة بأخذ

الأموال واضطهاد الناس والفقراء، حتى وصل الأمر بعد ذلك إلى اضطهاد العلماء، حيث ظهرت اكتشافات علمية من جاليليو وغيره كالتلسكوبات وغيرها، والاكتشافات العلمية التي بدأوا باكتشافها كانت تعتبر أول سقطة مُدوية للكنيسة؟ هم يؤرخون لذلك في العصور الوسطى بصدور كتاب في دوران الأفلاك لكوبر نيكوس، وبتأليف هذا الكتاب وقعت الطامة الكبرى من وجهة نظر الكنيسة؛ لأن كوبر نيكوس أعلن أن بحساباته الرياضية، ثم باختراع جاليليو للتلسكوب، أعلن أن الأرض ليست مركزَ الكون، بل هي مجرد كوكب تابع يدور حول الشمس مع بقية الكواكب. طبعًا هذه كانت الطامة الكبرى جدًّا، والسقطة الكبيرة للكنيسة، لماذا؟

لأن الذي قرر أن الأرض هي الثابتة وبقية المجموعة الشمسية تدور حولها هي الكنيسة.. أي أن الرب الخالق هو الذي قَرَّر ذلك! فعندما يأتي عالم من العلماء ليكتشف العكس، وأن الأرض ليست هي مركز الكون، بل إن الأرض تدور مع المجموعة الشمسية، وهي كوكب تابع من التوابع يدور حول الشمس، يصبح هذا الكلام مناقضًا لكلام الإله، والنتيجة أن هذا الإله أخطأ إذن؛ مَنْ قال ذلك ليس إلها! وبالتالي قضية التكلم باسم

الإله أصبحت آيلة للسقوط عند الكنسيين، فماذا فعلت الكنيسة؟ بدأت الحربَ بالحديد والنار، أي نظرية تخرج تُوأَدُ في مَهْدِهَا، ومَن لم يستجب يقتلوه، من لم يستجب يحرقوه، من لم يستجب يقطعوه، وغير ذلك حتى إنهم قتلوا أكثر من ٣٢ ألف عالما. وكانت الطامة الأخرى باكتشاف الميكروسكوب سنة ١٥٩٠، وتلك كانت الصدمة الكبيرة الثانية للكنيسة؛ لأن بالميكروسكوب العلماء بدأوا يَرَوْنَ الجراثيم والفيروسات التي كانت تنقل الأمراض كسبب، باستخدام هذا الميكروسكوب فأين كانت الطامة؟

الطامة أن الكنسيين كانوا يقولون أن الله أو الشيطان هو الذي ينزل الطاعون والأوبئة بالبشر، وحتى تدفع هذه الأمراض والأوبئة كانت صلوات رجال الكنيسة تدفع هذه الأوبئة والأمراض بمقابل مبلغ كبير من الأجور والأموال، فتذهب لرجال الكنيسة كي يصلوا من أجلك وحتى تدفع عنك الأوبئة، إنهم يكلمون الرب، يقولون: يارب؛ فلان نريد أن نُزِيلَ عنه الطاعون والأوبئة، فعندما اكتشفوا أن هناك أسبابًا للأوبئة والأمراض والطاعون أصبح هذا ليس كلام الرب، ولا فعل الرب، فكانت تلك انقلابة ثانية وسقطة ثانية للكنيسة، فحدث انقلابٌ كبير جدًّا على الكنيسة، واضطهاد شديد جدًّا من الكنيسة

للعلماء وتحريق للعلماء، و وأد أي ظاهرة أو تنقيب علمي، وأصبحت الحرب على أوجها بين الكنيسة والعلماء، حتى وصل الأمر إلى أوجه، وحدثت ثورة مِن قِبَل الشعب على الكنيسة، وهذه الثورة لم تكن على الكنيسة فقط، بل على الكنيسة والملوك؛ لأن الملوك كانوا تابعين للكنيسة حتى يظل سلطانهم قائمًا، فكانوا يعملون على رِضَا الكنيسة؛ لأن الكنيسة كان لها السلطان والهيمنة الكبيرة، فقامت الثورة، وكان لا بد أن تقوم الثورة؛ لأن هذا دين باطل محرف يسوس الناس إلى الهاوية، فكان لا بد أن يحدث هذا الأمر، وكانت الكلمة المشهورة في هذه الثورة التي قامت على الكنيسة: "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس "فحدث انقلابٌ على الدين والحكم معًا. بعد هذا الانقلاب خَفَتَ صوت الكنيسة بصورة كبيرة جدًّا، وبدأت النظريات العلمية تظهر شيئًا فشيئًا، والاختراعات العلمية تظهر شيئًا فشيئًا، لكن عندما تخلصت أوروبا من السلطان الكنسي بدأت تتخلص منه جزئيًّا، و بدأت الاكتشافات تظهر كما ذكرنا شيئًا فشيئًا، فتم اكتشاف قوة البخار والآلة، فَتَحَوَّلَ الناس من الصورة الزراعية إلى الصورة الصناعية باختراع قوة البخار والآلة وغير ذلك، فبدأ امتلاك المصانع الكبيرة التي قام عليها الإقطاعيون أصحاب الأموال وحازوا الثروات

الضخمة، وبدأت صورة الرأسمالية في المجتمع تَفْشُو، فبدأ استغلال العمال استغلالًا فاحشًا جدًّا، وانتشار المظالم الهائلة، وظهرت طبقات متفاوتة من الرأسماليين والفقراء شديدي الفقر، وتلك كانت رؤية جديدة للظلم، فبعد ظلم الكنيسة، بدأ ظلم الرأسماليين، ثم إن رجال الدين أو الكنيسة كان صوتُهم ضعيفًا خافتًا، فبعد أن كانوا يسيطرون على الإقطاعيين، أصبح الإقطاعيون يسيطرون على الكنسية، وكان رجال الدين يساندون الرأسماليين ويسكتون عن مظالمهم وعن ردهم، فأدى ذلك لانتشار الإلحاد في أوروبا والشك في وجود إله تمامًا، فقد هُدمت الكنيسة تمامًا لأنها ساعدت هؤلاء على الظلم وسكتت عن ظلمهم، إذن ليس هؤلاء مَنْ يتكلمون باسم الإله فتم اتهام الدين بالظلم في هذا الوقت، وعَجْزِهِ عن تقديم حلول للمجتمع تدفع الظلم وتحل مشاكله وكان صوت الكنيسة ضعيفًا، ولم تستطع تقديم أي حلول للناس، وتلك كانت المرحلة الثانية لوجود الإلحاد وعدم الإقرار بوجود خالق لهذا الكون، وأن الكنيسة والإله كانا وهمًا يَسِير الناس وراءه إذن؛ لا وجود للدين والإله.

ومِنْ عوامل انتشار الإلحاد كذلك ظهور المذاهب الاقتصادية الإلحادية بعد المذهب الرأسمالي الذي انتشر، فظهر المذهب الآخر

المناقض له تمامًا، وهو المذهب الشيوعي الاشتراكي، والشيوعية التي بَشَّرَ بها بعد ذلك كارل ماركس، وهو يهودي ألماني، وكان أبوه قد تَنَصَّر، هذا المذهب الشيوعي الاشتراكي ينطلق من منطلق اقتصادي بَحْت، ويستهدف معالجة المظالم الرأسمالية كما يقول مَنْ يُبَشِّر به، والسيطرة على مجتمع اشتراكي يعمل فيه كُلُّ إنسان حسب طاقته، ويأخذ حسب حاجته أيًّا كان مسماه أو وصفه؛ لكن القائمين على المذهب الاقتصادي هذا –للأسف– صبغوه صبغة عقائدية، فبعد أن كان هذا المذهب يقوم على الصورة المذكورة، بدأ يأخذ صفة أيديولوجية وعقائدية، وزعموا أن الحياة التي يعيشها الناس حياة مادية فقط ولا يوجد روح ولا بعث ولا إله ولا قِيم ولا أخلاق، وأن الناس في هذه الحياة لا هَمَّ لهم إلا المصالح المادية، وأن الأديانَ الموجودةَ والتي يَنْتَحِلُها الناسُ أو الأنبياء كانت لمصالح شخصية مِن فعل الأغنياء حتى يُلَبِّسُوا على الفقراء من خلال الأخلاق والأمانة والعفة والصدق حتى يأخذوا ما يريدون من مَصَالِحَ. وَبَثَّ الشيوعيون في هذا الوقت أن الأنبياء والقساوسة و الرهبان ما هم إلا بعض الدجاجلة الذين يريدون تحقيق مصالحهم الخاصة، وكانوا يتهمون مَنْ يعتقد أي عقائد

جديدة بالكفر والزندقة، ويبعثون به إلى السلطان، وصار مجتمعًا مؤلمًا جدًّا في هذا الوقت، فهذا كان عاملًا ثالثًا من عوامل انتشار الإلحاد في هذه المجتمعات. كيف انتشر الإلحاد في أوروبا ودخل العالم الإسلامي. ومتى تأسس، وَمَنْ هم أبرز مَنْ تَبَنَّوا هذا الفكر الخبيث؟ إن مؤسسي الإلحاد في الحقيقة أتباع العلمانية، لذلك لا بد أن نعرفَ كيف نشأت العلمانية حتى نعرف كيف أسس أهلها للإلحاد بعد ذلك. مِن هؤلاء المؤسسين طائفة تسمى الوجودية، والحركة الصهيونية[1]، والشيوعيون وعلى رأسهم الداروينية الذين

---

(١) الصهيونية: هي حركة سياسية يهودية، ظهرت في وسط وشرق أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، وقد دعا اليهود للعودة إلى أرض الآباء والأجداد (إيريتس يسرائيل) ورفض اندماج اليهود في المجتمعات الأخرى للتحرر من معاداة السامية والاضطهاد الذي وقع عليهم في الشتات، وبعد فترة طالب قادة الحركة بإنشاء دولة منشودة في فلسطين، والتي كانت ضمن الأراضي التي تسيطر عليها الدولة العثمانية، وقد ارتبطت الحركة الصهيونية الحديثة بشخصية اليهودي النمساوي هرتزل، الذي يُعَدُّ الداعية الأول للفكر الصهيوني الحديث، والذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم، وبعد تأسيس دولة إسرائيل، أخذت الصهيونية على عاتقها توفير الدعم المالي والمعنوي لإسرائيل. وقد عُقِدَ أول مؤتمر صهيوني في بازل بسويسرا ليَتِمَّ تطبيق الصهيونية بشكل عملي على فلسطين، فعملت على تسهيل الهجرة اليهودية ودعم المشاريع الاقتصادية اليهودية.

سنتكلم عنهم في نقد النظريات التي يتبنوها في إثبات هـذا الإلحـاد في زعمهـم- أرادت الحركـة الـصهيونية نـشر الإلحـاد في الأرض فنشرت العلمانية لإفساد أمم الأرض بالإلحاد كما سيتبين.

الحركة الصهيونية هي التي قامت عـلى نـشر هـذا الإلحـاد في العصر الحديث بالانسلاخ من كل الضوابط الـشرعية والأخلاقيـة والقيم والآداب والمعاملات، فأرادت أن ينسلخ المرءُ مِن كل هـذه الأمور، لا ضوابطَ شرعية، لا دين، ولا قيم أخلاقية تضبط النـاس في تعاملاتهم بعضهم مع بعض، فتكون النتيجة هدم الأمـم نفـسها بنفسها، وهذا الذي يُرِيدُه القوم، أن تهـدم الأمـم نفـسها بنفـسها، وكانت محاولات نشر الإلحاد داخل أوساط المجتمعات الإسـلامية نشطت جدًّا بعد سـقوط الخلافـة الإسـلامية، لأن الأرض كانـت خصبة جدًّا لِينتشر هذا الإلحاد، فكانـت الحملـة عـلى أوجهـا بعـد سقوط الخلافة الإسـلامية منـذ عـام ١٩٠٨ حتـى ١٩٢٤، كانـت الحملة على أَوْجها داخل أوسـاط المجتمعـات الإسـلامية في نـشر الإلحاد، وأول مَنْ حاولَ نشر هذه القضية في المجتمعات الإسلامية رَجُلٌ يُسَمَّى "إسماعيل أحمد أدهم" حيث قام عـلى نـشر الإلحـاد في مصر وأَلَّفَ أَولَ رسالة له في هذا الأمر، وكانت بعنـوان (لمـاذا أنـا

مُلْحِدٌ؟) وكانت منشورة ومطبوعة، وكانت تُوَزَّعُ، وطبعتها مطبعة التعاون بالإسكندرية عام ١٩٢٦. تَبِعَهُ بعد ذلك "إسماعيل مظهر" وهو الذي ترجم لكتاب نظرية التطور لدارون، وهو أصل الإلحاد وأصل التطوريين، كتاب (أصل الأنواع) الذي نشر به فكرة الإلحاد بصورة علمية كما يقولون. وهذا كلام كما سَنَرَى لا يقوم على طريقة علمية صحيحة هدمها أهلها كما سنبين، لكن كتاب "أصل الأنواع" كان الكتاب الأم بالنسبة للمُلحدين في نشر قضية الإلحاد، والذي ترجم له كان إسماعيل مظهر، وأصدر في سنة ١٩٢٨ مجلة العصور في مصر للدعوة إلى الإلحاد، وقد تاب في آخر حياته، وكانت هذه المجلة تدعو إلى الإلحاد بصورة فَجَّةٍ جدًّا، وتطعن في العرب والعروبة طعنًا قبيحًا، قضية العروبة قضية لنا كلام عليها، لكن أنا أذكر الآن ما كانت تذكره المجلة آنذاك. وكان في هذه المجلة يتهم العقول العربية بالجمود والتخلف والانحطاط، وكان يشيد بأمجاد إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم، وهم ثلة قليلة جدًّا كانوا ١٥ ألف نسمة في بدايتهم، كيف بدأت لهم حضارة وصناعة ومجتمع! وظل يُشِيدُ بأمجاد هؤلاء الإسرائيليين، وفي سنة ١٩٢٨ أُسست جماعة لنشر الإلحاد في مصر تحت شعار الأدب، واتخذت دارًا -كانت تُسَمَّى دار العصور- مقرًّا لها، وكان

اسم هذه الدار وهذه الجماعة رابطة الأدب الجديد، وكان لها أمين سِر هو كامل كيلاني، وتاب بعد ذلك، لكن نذكر هذا الأمر للتأريخ لهذا الأمر الذي نذكره. وفي العموم، يؤرخ المؤرخون لموجة الإلحاد العاتية جدًّا في هذا الوقت الذي نحن فيه بأحداث ١١ سبتمبر، وهم يتعمدون أخذ أحداث ١١ سبتمبر لِيؤرخوا بها لبداية ظهور الإلحاد بوجه عام ١١ سبتمبر، ماذا حدث؟

الذي حدث أن مجموعة من الجهاديين الذين نسبوا أنفسهم للجهاد زُورًا وبهتانًا ضربوا الأمريكان وخربوا اقتصادهم ومجتمعاتهم وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ ومَن لا ذنب لهم من المدنيين حتى يفرضوا سلطان الدين، هذا ما يقولونه. إذن؛ الدين هو الذي جاء لِيهدم المجتمعات ويقتل الأبناء ويشرد وَيُرَمِّلَ وَيُيَتِّمَ ويخرب، فالدين جاء لأجل ذلك، والصراع الحاصل لنشر الدين بهذه الصورة. إذن الدينُ وَهْمٌ كبير خطير، يريد أن يخرب المجتمعات، اذن لا وجود للدين، ولا وجود للإله، ولا وجود للخالق، وطبعًا؛ هذا الكلام هم يقولونه للقضاء على الأديان، وهم يقولون أن سبب وجود الحروب والقتلى في العالم هو وجود الأديان، وفي الحقيقة فإن مَن تتبع الإحصائيات وجد أن أكبر نسبة قتل حدثت في العالم حتى الآن كانت بسبب الملحدين. فأكبر نسبة

قتل حدثت في أحداث النازية لهتلر، كم كان عدد القتلى؟ كبير جدًّا جدا، في أحداث النازية لقد كان هتلر يتبنى مذهبًا الحاديًّا.. فأي حدث في العالم تجد فيه عدد قتلى ضخم جدًّا هو بسبب الإلحاد، فحقيقة وجود الإلحاد هي نشر لثقافة القتل والنصب والسرقة وسفك الدماء وخراب المجتمعات، وإليك بيانُ ذلك.

مآسي المسلمين في ما كان يسمى الاتحاد السوفيتي: لقد عمد الشيوعيون لأساليب إبادة رهيبة للمسلمين، فتمت إبادة عشرين مليون مسلم خلال خمسين عامًا وقد ثبت بالإحصائيات الروسية أن ستالين وَحْدَه قتل ١١ مليون مسلم -سكان منطقة القرم.

مذابح أهل البوسنة في يوغسلافيا السابقة، حيث أَبادَ الشيوعيون فيها بعد الحرب العالمية الثانية مليون مسلم، منهم ١٢ ألفًا قتلوا في المسجد الكبير بفوجا في شرق البوسنة وذبح ٦ آلاف مسلم في جسر فورا.

مأساة المسلمين في الصين الشيوعية: لقد حُورِبَ الإسلام في الصين الشيوعية منذ عام ١٩٥٤، وشمل ذلك تعطيل المساجد وقتل وسجن العلماء وتقسيم تركستان الشرقية وتهجير المسلمين وقتل ٣٦٠٠٠٠ مسلم.

مذابح المسلمين ومآسيهم في منطقة الحبشة: حيث وضع الطاغية هيلا سيلا سي خطةً لإنهاء المسلمين خلال ١٥ عامًا وتبَاهَى بخطته أمام الكونجرس الأمريكي، وقام بإحراق الشيوخ والنساء والأطفال بالنار والبنزين في قرية جرسم، وأمر بالتعقيم الإجباري للمسلمين -رجالًا ونساء. وقام بعده السفاح منجستو بمذبحة كبيرة، حيث أمر بإطلاق النار على المسجد الكبير بمدينة ري رادار بإقليم أوجا وين، فقتل أكثر من ألف مسلم كانوا يؤدون الصلاة في رمضان عام ١٣٩٩هـ.

مذابح المسلمين في الفلبين على يد حكومة ماركوس: حيث ارتكبت أفظع الجرائم من قتل جماعي، وحرق للأحياء، وانتهاك للأعراض والحرمات، وَفَقْءٍ لأعين الرجال وَبَقْرٍ لِبطون الأطفال، وذبح بالخناجر، وفصل للرؤوس عن الأجساد.

مأساة المسلمين في فطاني في تايلاند: حيث قامت الحكومة البوذية بحرب الإسلام وإغلاق الكتاتيب، وإفساد عقائد المسلمين، وقامت بتصفية الدعاة والعلماء، وتم حرق ١٠٠ شاب مسلم بالبنزين: صرح رئيس البوليس في جنوب تايلاند أن حياة المسلم لا تساوي ٢٦ سنتًا فقط، أي قيمة الرصاصة[1].

---

(١) كي لا يستمر الهوان د/ مهدي علي قاضي.

أفكار ومعتقدات الملحدين:

- إنكار وجود الله سبحانه، الخالقﷻ تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا. - الكون والإنسان والحيوان والنبات وُجِدَ صدفة وسينتهي كما بدأ، ولا توجد حياة بعد الموت. وهذه من العجائب، وسنتكلم عنها بالتفصيل، وسنرى كيف أن موضوع أن وجود الأشياء صدفة موضوعٌ ساقط بكل معاني الكلمة؛ حتى بكلام الغربيين أنفسهم.

- المادةُ أزلية أبدية، وإنها الخالق والمخلوق في نفس الوقت: وهذا الكلام كان يدرس لنا ونحن لا ندري، تذكرون قانون المادة في مادة العلوم في إعدادي (المادة لا تفنى ولا تُسْتَحْدَثُ من العَدَم) يعني أزلية أبدية، اذن هي الخالقة، هذا ما يقوم عليه الإلحاد، ولأنهم ماديون لا يعترفون إلا بوجود الأشياء المحسوسة التي يَرَوْنَها؛ لذلك حينما كان يُسألُ أحدهم عن الخالق، كان يضرب على الأرض أشياء صلبة، يقول هي المادة الخالقة المكونة لهذا الكون.

سنتكلم عن هذا، وسنبين ما هي المادة، وما هو تعريفها، وما هو أصغر مكون، وهل يصلح أن يكون هو الخالق للكون ونهدم نظرية المادة حتى لا يكون عندهم إله فيضطرون للبحث عن الإله الحق أو يعترفون بوجود إله.

- **النظـرة الغائيـة للكـون والمفـاهيم الأخلاقيـة تُعِيـقُ تَقـدُّم العلم**.. أي أن الاعتقاد بأن هذا الكون مخلوق لِغاية أو حكمة، وأنه يجب أن تسود مفاهيم أخلاقية تجعل العلاقات بين الناس يتعاملون مع بعضهم الـبعض بـأدب وأخـلاق، وغـير ذلـك، هـذا الكـلام عندهم يُعيِقُ تقدم العلم، فلذلك فمن بـين أصـولهم أنـه لا توجـد غائية لهذا الكون، ولا توجد قِـيَمٌ ولا مبـادئ ولا أخـلاق؛ لـذلك سَـنَرى المعتقـدات التـي يُؤَصِّـلون لهـا تأصـيلًا خبيثًـا جـدًّا في الصراعات بين العالم وبين الـدول بعـضها مـع الـبعض، لا تُوجِـدُ أخلاقًا ولا قيمًا ولا مبادئَ ولا ضوابطَ ولا أي شيء؛ إذ الأمـر كلـه يقوم على المصلحة الشخصية، وهذا امتدادٌ لنظرية داروِن التطورية التي تؤكد على أن البقاء للأصلح، وأن التطور جاء عـن طريـق أن البقـاء للأصـلح، فتقـوم عـلى نظريـة الـصراع مـن أجـل تحـصيل الشهوات والمصالح، سواء شخصية أم دولية، فَيُؤجج هـذا الأمـر الصراع الموجود في العالم.

- **إنكار معجزات الأنبياء؛ لأن تلك المعجزات لا يقبلها العلم** كما يزعمون، ومن العجب أن الملحدين الماديين يقبلـون معجـزات الطفرة الوحيدة التي تقول عليها الداروينية، ولا سند لها إلا الهوس والخيال؛ لأنهم أصلًا ينكـرون الـوحي، والرسـالة في هـذا الكـون

يقوم بها الأنبياء، فلا أنبياء عندهم ولا معجزات، وهذه الأمور لا يقبلها العلم عندهم، يقولون ذلك لماذا؟ لأنهم يقولون: نحن لا نقبل أمورًا غيبية وأمورًا لا نشاهدها، مع أنهم -سبحان الله- يؤيدون وينفثون بكل ما أُوتُوا من قوة في نظرية دارون، ويعتبرون أنها طفرة من الطفرات، وهذه كلها قائمة على أمور ليست حِسية، ليست ملموسة، ومع ذلك يؤمنون بها، وَيُنقاضون أنفسهم كما سنبين بإذن الله تعالى.

- الملاحدة ينظرون لتاريخ الأمم السابقة على أنه صورة للجرائم والحماقة التي قامت في هذا الكون، وخيبة أمل كبيرة جدًّا، وقصة التاريخ عندهم لا تعني شيئًا[1]. والإنسان نفسه مادة تنطبق عليه قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية. يقولون: إن القوانين هي التي نشأت، هي التي خلقت، هي التي جعلت، مع ان القوانين هذه في حَدِّ ذاتها هو لم يسأل نفسه كيف عرفتها؟ وسنعلم أن تلك القوانين هي قوانين مُسَيَّرة، وهو لا يستطيع أن يُغَيِّرَ في الثابت منها شيئًا كما سَنُبين بإذن الله تعالى، فكيف تكون خالقةً ويُتَحَكَّمُ فيها! هل يوجد خالق

---

(١)موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة (مجموعة باحثين).

يتحكم فيها إذن؟! هم يتحكمون في هذه المادة والقوانين التي يقولون أو يزعمون أنها الخالقة تحكمًا كبيرًا جدًّا، فكيف يزعمون أنها إلههم الخالق؟ يأتون بالذرات والمادة، المادة لها عدة تحولات من سائل لِصلب لغاز إلى غير ذلك، ويتحكمون فيها تحكمًا كبيرًا، كيف يكون خالق بهذا الأمر الذي يتم التحكم فيه بهذه الطريقة؟ كلام متهافت؛ بل شديد التهافت جدًّا. هذه بعض المعتقدات التي يقوم عليها فِكْرُ الإلحاد. ولهذا الفكر أسبابٌ أَدَّتْ إلى دخوله للمجتمعات الإسلامية.

أسباب وجود فكر الإلحاد في المجتمعات عمومًا وخصوصًا الإسلامية منها:

- غياب القدوة الصالحة في كل الدروب، في البيت في المدرسة في الجامعة في المتجر في المصنع في كل مكان يوجد مجتمع من الناس، وعند غياب القدوة الصالحة يُصْبِحُ ذلك عاملًا مؤثرًا كبيرًا جدًّا لوجود الإلحاد.

- تَعَرُّضُ بعض الشباب خاصة في بداية تكوينه الفكري -من أول إعدادي عندنا مثلًا، وذلك من خلال قراءة كتب الفلسفة أو اتصاله بمفكرين ملاحدة أَعْجَبَهُ أسلوبهم في الكلام، وأسلوبهم في الكتابة، وأسلوبهم في العرض، وغير ذلك. هذا سَبَبٌ من أسباب

انتشار هذا الفكر، وهذا يجعل على عاتقنا مهمة كبيرة جدًّا جدًّا، وخطيرة جدًّا جدًّا، فيجب أن تكون بنفسك قدوة حسنة في المجتمع وَتَسْعَى لبناء القدوة الحسنة في المجتمع حتى تقضي على القدوات الموجودة بالنسبة للشباب، الشباب الآن قدوتهم مَن؟ فلان الفلاني، وأسماء لا تستطيع نطقها، وهو يجري فيها كالسهم، يعرف تاريخ ميلاده وإن كان تَزَوَّجَ أم لا؟! لأنه يتخذه قدوة؛ لأنه فَقَدَ القدوةَ الصالحةَ الموجودةَ، نحن الآن نترك الشباب يتخللهم هذا الفكر عن طريق النت والفيس بوك، وعن طريق حواراتهم مع الملحدين من خلال الكتب أو من خلال المنتديات، أو المقاهي، أو من خلال التجمعات في الأندية الشبابية وغير ذلك، كل هذا وأنت تتركه فريسة لِغَيْرِهِ، أنت تريد أن تُصْلِحَهُ، لكنك لست قادرًا على أن تصل إليه، أو مقصر في الوصول إليه، لكن هو يستطيع الوصول إليه، فيشكل فكره من نعومة أظفاره، فهذا سبب من أسباب وجود الإلحاد.

-غلبة الشهوة على كثير من الشباب وأنهم يَرَوْنَ أن الدين مانع لهم عن تصريف هذه الشهوة، فيبدأ في الابتعاد عن الدين لأنه سيقول له: هذا حلالٌ وهذا حرام، لا تتكلم مع هذه البنت، لا تمارس هذه العادة، لا تفعل هذا الفعل، لا تتمتع هذا التمتع.. فَلِغَلَبَةِ شهوته، وهو لا يستطيع أن يصرفها تصريفًا صحيحًا،

يذهب للإلحاد؛ لأنه يريد أن يخرج من الدين حتى لا يشعر بتأنيب الضمير ولا يشعر أن عليه سلطانًا يقول له: افعل ولا تفعل، وهو يريد أن يقضي هذه الشهوة بطريقة ليس فيها تأنيب ضمير، فوجودك مع هؤلاء الشباب يُبين لهم كيف يكون التصريف الصحيح للشهوة، كما قال النبي ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» [رواه البخاري] وَدَوْرُكَ أنت أن تَدُلَّهُ على تقليل حِدة هذه الشهوة وكيفية تصريفها التصريف الصحيح، وذكرنا الأسباب حتى تُعلمَها الشبابَ ونُحِدَّ ظاهرة الإلحاد من النمو والانتشار.

- **أمر أصبح داخل بيوت كثيرة، إلا من رحم الله، وهو انتشار القنوات الإباحية**، والإنترنت، ودور النشر والمقاهي الثقافية وغير ذلك، وهذه كلها أمور تبث فيها الشهوات والشبهات بطريقة كبيرة جدا جدا، الشاب يجلس على الفيس أو الإنترنت ٢٤ ساعة، وشات مع فلان ومع فلانه، والملحدون يخترقون الشباب من خلال هذه الأمور اختراقًا شديدًا جدًّا جدًا، وحتى الآن أنت ليس لك دور بناء أو فعالٌ في هذا الأمر، فهذه أيضًا مُهِمَّةٌ على عاتقك.

- وِمِنَ المآسي: عدم قيام المؤسسات الموجودة في الدولة أو الدول عمومًا بدورها، من تعليم في المعاهد والجامعات والمدارس،

وعدم القيام بأنشطة للوقوف ضد انتشار هذا الفكر الإلحادي، وبطء الاستجابة جدًّا في رد الفعل على هذا الفكر الخبيث.

- وجود فئات من المجتمع أساءت للدين بِعَمْدٍ أو بغير عمد من خلال حماسها غير المنضبط، والجهل العريض، فيتحول الدين إلى مظاهر فقط دون مضمون من خلال الحماس والعاطفة غير المنضبطة، ومن خلال الجهل العريض، فيتحول إلى مظاهر لا يصاحبها جوهر ولا مضمونٌ نقي، فيتسبب في حدوث رد فعل عند هؤلاء الشباب أنه لا يريد الدين، أو وقوع بعض الرموز في قضايا تخالف ما يدعون إليه، فَيَكْرَهُ الشبابُ الدينَ بهذا الأمر وبهذه الصورة.

أنواع الملحدين وأقسامهم:

سنقسم الملحدين كملحدين إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: فلاسفة بَيَّنُوا الإلحادَ وتبنوا نظرية دارون التي سَنَتَكَلَّمُ عنها بالنقد بإذن الله تعالى.

النوع الثاني: الشيوعيون الذين يريدون تحويل المجتمعات إلى مستعمرات لهم، ولن يكون لهم ذلك إلا بهدم المعتقدات الدينية وهم في روسيا بكثرة، ولينين وماركس والنازية، وغير ذلك من الأفكار التي جاءت لتحويل المجتمعات لمستعمرات لهم.

النوع الثالث: أفراد غير مُؤَدلجين، ليسوا أصحاب فكرة مُتبنَّاة، وجدوا في القول بالإلحاد هروبًا من قيود الدين كما أشرنا في الأسباب التي تمنعهم عن تصريف شهواتهم كما يريدون.

النوع الرابع: موجود في كل المجتمعات وفي كل الديانات، لأنهم عبارة عن عدد من الأفراد الصامتين المتشككين، ولكن لا يطرحون شَكَّهُم هذا للنقاش حتى يُرد عليه، وهذه الطائفة التي غَلَبَ عليها الجانب النفسي في طريقة الانغلاق في التربية أوصلهم إلى هذا أنهم خائفون وليس عندهم ثقة في أنفسهم، فَقُوَّةُ أفكارِ الملحدين عليهم كبيرة، فلا يستطيعون الرد أو النقاش.

أقسام الملحدين من حيث علاقتهم بربهم تقوم على ثلاثة أسس:

من حيث علاقة الملحد بربه، ومن حيث علاقة الملحد بإلحاده، ومن حيث أسباب الإلحاد.

أولاً: من حيث علاقة الملحد بِرَبِّهِ لدينا نوعان من الملحدين:

- الملحد القوي: وهو الذي يُنكر وجودَ رَبٍّ خالق للكون، ويأتي بأدلة على ذلك، وهي طبعًا أدلة واهية، وهذا يسمى عندهم مُلحد قوي؛ لأنه ينكر وجود خالق للكون مع تقديم أدلة لما يقوله؛ لكنها واهية كما سَنُبين.

- الملحد الضعيف: هو أيضًا ينكر وجود خالق لكن ليس معه دليل، ولا يستطيع تقديم دليل، ولا يتقبل دليل على وجود خالق.

من حيث علاقة الملحد بإلحاده لدينا ثلاثة أنواع:

الأول: مُلحد سَقَطَ في الإلحاد عن طريق الشبهات، وهذا في الحقيقة رَدُّهُ عن الإلحاد أمر سهل بعد تفنيد الشبهات، فيجدها شبهات ساقطة واهية وكثير منهم رَجَعَ.

الثاني: ملحد تأقلم مع إلحاده، فهو وَجَدَ في الإلحاد بُغْيَتَهُ، وبدأ يرد ويأتي بأدلة، فحدث عنده تأقلم مع الإلحاد.

الثالث: وهذا أصعبهم نفسيًّا، ملحد لا يستطيع التأقلم مع إلحاده، وهذا غالبًا نهايته بالانتحار؛ لأنه بداخله الفطرة تأن عليه أن هناك خالقًا، وإلحادُه يقول له: لا ليس هناك خالق، فيتنازع الأمر ويتناقض مع نفسه تناقضًا شديدًا يؤدي به في النهاية إلي الانتحار.

أسباب الإلحاد:

- أسباب علمية: وهذه ذريعة كبيرة للإلحاد، والملاذ الذي يعتمدون عليه في ظَنِّهم هو نظرية التطور ومن خلال كتاب "أصل

الأنـواع" وكتاب "أصل الإنسان" لـداروين أيـضًا، وكـأن هـذين الكتابين هما الملاذ العلمي للملحدين في العالم حتـى يُؤَصِّـلُوا لهـذه القضية الخبيثة

-**أسباب نفسية:** وأكثـر الملحـدين الـذين يقولـون بـأنهم ملحدون، تجد أن الأسباب التي يذكرونها بعـد البحـث والتنقيـب أسبابٌ نفسية، مثلًا الدكتور عبد الكريم بكار، كان يناقش ملحدًا، ونحن نعلـم أن الملحـد تقـوم فكرتـه عـلى إنكـار وجـود الخـالق، فالدكتور عبد الكريم بكار يتكلم معه بعد محاورة كبـيرة، قـال لـه: أنت لست ملحدًا! قال له: لا، أنا ملحد، قـال: لا لا لا أنـا متأكـد أنك لست ملحدًا، قال له: لا، أنا ملحد! ثم قال لـه: والله العظـيم أنا ملحد، رغم أنه ينكر وجود خالق! هذا ما نريـد قولـه، أن هـذه أسباب نفسية، إما أن تكون أمورًا عاطفية فَتَأَثَّرَ تَأَثُّرًا شـديدًا جـدًّا، فأدى به إلى الوقوع في الإلحاد، أو ابتلاءات بالمرض أو بفقد الأحبة أو بفقد المال أو غير ذلك، فيبتلى ابتلاءات لا يستطيع الصبر عليها، فيقوم بالاتجاه إلى الإلحاد، كأن يبتلى مثلًا بفقـد ابنـه الوحيـد وهـو صغير، فيتسخط ويبدأ ينقلب على الرب سبحانه ويقول: ليه كـده! اشمعن أنا! ويبدأ ينقلب بسبب هذه الابتلاءات.

- أناس كثيرون جدًّا يدعون ولا يستجاب لهم، فيكـون هـذا

سبب في إلحادهم، يظل المرء يدعو ويدعو ولا توجد استجابة، والنبي ﷺ حذر من هذا الأمر، فقال: « **يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ** » ونهى ﷺ أن يقول الرجل: دعوت ولم يُسْتَجَبْ لي؛ لأن مآله صعب جدًّا، وقد يؤدي ذلك إلى الإلحاد.

بعض المصطلحات نذكرها حتى ندخلَ في عمق القضية:

أولاً: الملحد: ذكرنا أنه المنكر لوجود الخالق، ومن ثم ينكر وجود دين طبعًا طالما أنكر وجود خالق.

ثانيًا اللاديني: منكر لوجود الدين، لكن ليس بالضرورة أن ينكر وجود الإله، أي أن اللا ديني من الممكن أن ينكر الإله والدين، أو ينكر الدين فقط ويعترف بوجود إله، لكن ما شكله؟ ما صفته؟ كما نسمع أن بعض الملحدين توصل في النهاية وألف كتابًا أنه بعد أن كان يقول: لا إله، قام بتغيير اسم الكتاب أنه يوجد إله، من كان هذا الإله؟ كان صدام حسين!!، قال: هو الإله الموجود الآن، وهذا طبعًا خَلَلٌ كبير جدًّا، لكن كانت الفكرة أنه بعد أن كان يقول أنه لا إله مطلقا أصبح عنده إله أيًّا كان شكله، لكن نحن سنتكلم عن الإله وصفاته ونتكلم مَنْ هو الله، ما أسماؤه وصفاته وغير ذلك؟ لكن الشاهد أنه حتى حينما يهتدي يصبح كما ذكرنا، لأن البعض يقول بأن هناك ملحدين كثيرين اهْتَدَوا! لا، هو

لم يهتد للإسلام، إنما هداه عقله الفاسد إلى أنه لابد أن يكون هناك إله، لكن لم يهده إلى أنه هو الرب الخالق الرازق الذي نعبده، فهو أساسًا كان ينكر وجود إله وأقر بعد ذلك بوجود رب أو إله، فمصطلح اللا ديني يفضله الملحدون على مصطلح الإلحاد، وسيدخل تحتهم الملحد المنكر لوجود الرب واللاأدري والربوبي فنحن نحتاج إلى أن نعرف هذه المصطلحات أيضًا اللاأدري والربوبي والعلماني أيضًا؛ لأنهم كانوا سببًا كبيرًا في نشأة الإلحاد في العصر الحديث.

ثالثًا اللاأدري: في الجملة هو الذي يؤمن أن قضايا الألوهية والغيب لا يمكن إثباتها وإقامة الحجة عليها، كما لا يمكن نفيها! تذكرون عندما تكلمنا عن الملحد الضعيف الذي كان يقول ليس هناك خالقًا، ولا يستطيع أن يقيم أدلة ويرد أدلة مَنْ يقول بوجود خالق واللا أدري يشبه الملحد الضعيف وهو مشتق من كلمة لا أدري، لا ينكر ولا يثبت، ليس عنده أدلة تثبت وجود خالق، وليس عنده أدلة تنفي وجود خالق، وهو مُتشكك، وهذا اللاأدري في الحقيقة عندما تبحث عنه لا تجد له وجودًا في الحياة؛ لأن كل شيء عنده لا أدري! لا أعرف!، مثلًا: رجل سُرقت سيارته، وكان بها مثلًا نصف مليون جنيها، فُتحت وسُرقت، سيذهب لعمل بلاغ

في القسم فيسأله الضابط في البلاغ: ماذا كان لون السيارة؟ فيقول: لا أعرف! لا أدري! يقول له: هي سيارتك أم لا؟ يقول لا أدري! يسأله: يقول له: هي الأموال التي كانت بالسيارة سُرقت؟ يقول: ممكن تكون سُرقت وممكن تكون ضاعت، يسأله: طيب لماذا جئت؟ يقول: لست أدري، فهذا ليس له وجود في الحياة في الحقيقة، هو مجرد أمر ذهني لا ينكر ولا يثبت ولا وجود له؛ لأن هذا أصلًا إنسان مجنون في الحقيقة.

رابعًا: الربوبي: وهؤلاء موجودون بكثرة، وعندهم شبهات وقد ترى كثيرًا منهم على شاشات التلفاز، فالربوبي: هو مَن يثبت وجود رب، حتى يخرج من قضية إثبات وجود الرب والأدلة عليه ونقد النظريات التي تنفي وجود الرب ويُريح نفسه ويقول: أنا معترف بوجود رب، فيثبت وجود الرب ولكن عنده هذا الرب على ثلاثة أحوال على اختلاف الربوبيين كالتالي: إما أن هذا الرب خلق الكون وتركنا ونحن نفعل ما نشاء في الكون، ويشبهون هذا الرب بصانع ساعة الزنبرك تملأها وتتركها فتعمل فترة طويلة وحدها، فيقول الرب خلق الكون وتركه يعمل وحده، وهذا نوع من أنواع الربوبيين حتى ينخلع من أيِّ رقابة وأي دين وأي تعبد نهائي. أو يثبت وجود خالق، لكن يقول: إن هذا الخالق أنت تقول

أنه خلق الكون، لكن الشر الموجود في الكون هل هو مَنْ أَوْجَدَه؟ وهذه قضية سنتكلم عنها في الرد على الشبهات، أعني قضية وجود الشر في العالم؛ لأنهم يجعلونها ذريعة لإنكار وجود الله ﷻ فهذا يقول رب موجود خلق الكون لكن الشر الموجود هل هو مِن خلقه؟ هذه طائفة تقول هو الذي خلقه، وهو رب شرير، فهو يعترف بوجود رب لكن يقول رب شرير والعياذ بالله. أو يقول: هناك رب خالق للكون ولكنه عاجز عن دفع الشر عن الخلق الذي خلقه، فلا يصلح أيضًا أن يكون ربًّا، في النهاية: الربوبى هذا لا يعبد شيئًا، و يظل ملحدًا؛ لذلك هو ضمن الملحدين، وهذه الشبهات سَنَرُدُّ عليها إن شاء الله تعالى سواء مَنْ يقول رب عاجز، أو رب شرير، أو رب ترك الكون ولا شأن له به، وطبعًا كل ذلك مردود عليه تفصيلًا في كتاب الله وسنة النبي ﷺ.

خامسًا: مصطلح العلماني: العلمانية هي دعوة لإقامة الحياة على غير دين، إذن؛ على ماذا تقوم؟ على الأمر المادي والعقلي فقط بعيدًا عن أي دين، والعلمانيون درجات، درجة منهم تنكر وجود الإله تمامًا وهم الملحدون، ودرجة منهم يقولون بوجود إله، لكن هذا الدين الذي جاء من عند الإله لا نقر به ولا نعتبره ولا نسير به الحياة، فتكون الحياة عند هؤلاء قائمة على ماذا؟ على معاملات

أفراد مع أفراد، ومجتمعات مع مجتمعات، ودول مع دول، وهذه العلاقات إما أن تكون اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو سلم أو حرب، أو غير ذلك، والإسلام جاء وضبط كل هذه العلاقات، فهم حتى يُنَحُّوا الدين عن الحياة ماذا يفعلون؟ لا بد أن يأتوا بدين آخر يسير هذه الحياة؛ لأنه لا بد من تعاملات، وهي لا تنقطع بين الأفراد والمجتمعات والدول على أسس سياسة واجتماعية واقتصادية، لكن على أي أساس؟ فيأتون بدين آخر يقوم على المصلحة البحتة والبقاء للأصلح والأقوى، والمصالح والغايات الميكيافيلية، وأن كل وسيلة تستطيع أن تصل بها لغايتك أيًّا كانت، فهي مباحة تستطيع أن تصل بها إلى ما تشاء وكيفما تشاء، وإن كان هذا المصطلح خُص بالحالة السياسية بقدر أو بآخر، هذه كانت بعض المصطلحات التي أردنا أن نشير إليها.

نعود ونكرر و نقول: إن الرد على الملحدين يكون من خلال دليل الفطرة أولًا، والتعمق في دراسة الكتاب والسنة بفهم دقيق جدًّا؛ لأن كل شبهاتهم شبهات واهية، مثلًا بعضهم يقول: إن القرآن متناقض، ويأتي بالآيات ويضرب بعضها ببعض نتيجة عدم فهمه للقرآن وعدم دراسة تفسير القرآن ومعاني القرآن، يقول:

قضية الخلق في القرآن فيها تناقض، كيف؟ يقول: اقرأ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤] بالتالي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، لكن الأرض أولًا أم السماوات؟ قال تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] بالتالي كان خلق الأرض أولًا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١] إذن؛ الآيات تقول: إن الأرض خُلقت أولًا في يومين تقدير الأوقات والأرزاق، ثم استواء إلى السماء وخلقها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] في الآية الثالثة: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] إلى قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] فيقول: هذا هو التناقض، ألم نقل إن الأرض خُلقت أولًا ثم في هذه الآية يقول: أن السماء خُلقت ثم الأرض؟ فيقول: هذا الكلام متناقض والقرآن متناقض. إذن؛ هذا ليس رَبًّا -والعياذ بالله- وهذا كلامه. ولو كلف نفسه أن يرجع لأي تفسير سَيَجِدُ أن الأمرَ يسير جدًّا وواضح، ولا يوجد تناقض في كلام الله قطعًا ويقينًا، فالآية الثانية تبين الخلق، والآية الثالثة تبين دَحْو الأرض بعد ذلك، أي

أنها خُلِقَتْ أولًا ثم كان دحو الأرض بعد ذلك، ودحاها معناها يفسرها ما بعدها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣١، ٣٢]، فليس الدَّحْوُ أن الكرة الأرضية بيضاوية كما زعم البعض، وسيأتي لهذا مزيد بيان.

فهذا الدحو تم بعد خلق السماوات، فالأمر واضح ومفهوم جدًّا وَمُنْتَهِي.

فالجهل وعدم الارتباط بالكتاب والسنة من أسباب الانحراف الشديدة، لذلك عندما ترد على أي فكر سواء كان الحادًا أم خوارج أم شيعة أم تكفيرًا، أيًّا كان الرد، فإن ارتباطك بالكتاب والسنة بالفهم الصحيح هو الذي يُعينك في الرد على هؤلاء؛ لأن الله تعالى بيّن كل هذه القضايا في القرآن لمن يتدبر ولمن يَعِي.



تفنيد النظريات

التي يرتكز عليها الفكر الإلحادي

ذكرنا في قضية الإلحاد أنها تقوم أساسًا على هدم فكرة الإله والدين عمومًا، وبناءً على ذلك؛ أصبحوا في حيرة من كيفية الرد على الأسئلة الفطرية في قلب كل إنسان خلقه الله تعالى، وهذه الأسئلة التي هي أسئلة فطرية، مَن الذي خلق هذا الكون؟ وإلى أين يكون المصير؟ وكيف وُجِدْنا في هذه الحياة؟ فإذن؛ هذه القضايا الثلاث هي التي جعلت قضية الإلحاد تقوم بنظرياتها حتى تهدم ما عند الأديان وعند المسلمين. نؤكد أن قضية خلق الكون والحياة والإنسان هذه القضايا الثلاث لا مجال لإعمال العقل فيها إلا من خلال الوحي؛ لأن الله قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]، فالله ﷻ لم يُشْهِدْنا على خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسنا، فكيف نعرف ذلك إلا من خلال الخالق تبارك وتعالى، فلا مجال لمعرفة هذا الأمر ودقائقه إلا من خلال وحي الله تبارك وتعالى، كيف خلق الله الكون؟ وكيف خلق الله الحياة؟ وكيف خلق الله الإنسان؟ ولكن مَن لا

يُدِينون بدين الإسلام أصبحت عندهم حيرة شديدة جدًّا في التفسيرات المتناثرة عندهم لكيفية خلق الكون والحياة والإنسان، فأصبحوا يبحثون عن الأمور العلمية التي تفسر هذه القضايا، فَمَن قال منهم إن المادة هي الخالقة لهذا الكون بناء على أن المادة لا تَفْنَى ولا تُسْتَحْدَثُ من العدم إذن هي أزلية إذن هي الخالقة، فَبَنَوا اعتقادهم على هذا الأمر على أن المادة أزلية إذن المادة خالقة لا أول لها ولا نهاية لها، إذن هي الخالقة! ولو أننا عرفنا مفهوم المادة ومفهوم الأزلية من كلامهم هم لَسَقَط إلههم المزعوم وهو المادة، سَنُبين هذا الأمر، لكن أريد أن أوضح أن القائمين على الإلحاد في العالم الآن يشنون هجمة شرسة وهجومًا ضاريًا على الإسلام وأهله حتى يهدموا عقائد المسلمين فيسيطرون على العالم. ريتشارد دوكينز إمام الملاحدة الآن في العالم كله، وهو طبيب بريطاني الأصل أَلَّفَ كتابًا أسماه (وَهْم الإله) وهو رابع أربعة من الذين يُؤَصِّلُون للفكر الإلحادي الآن في العالم، حيث أقام ريتشارد مؤتمرًا عالميًا عام ٢٠٠٦، وكان هدف المؤتمر القضاء على وهم الإله بالكتاب الذي ألفه، وتم عمل دعاية كبيرة جدًّا لهذا المؤتمر بأموال باهظة وإنفاق ليس له سقف حتى يحشدوا له أكبر عدد ممكن من الناس ليحضروا هذا المؤتمر، وقد خرج المؤتمر بتوصيات ثلاث:

التوصية الأولى: إن الدين وهم خطير يؤدي إلى العنف والحروب، فقالوا إن الحروب والعنف الموجود في العالم سببه وجود الدين، فَكُلُّ أهل دين يريدون أن يُدخلوا الناس في هذا الدين، فتحدث الحروب ويحدث الإرهاب الموجود في العالم، ولا أدل على ذلك من حادثة ١١ سبتمبر -يزعمون ذلك. لكن لو أتينا بالإحصائيات نجد أن أكبر مصدر للحروب وأكبر عدد للقتلى كان بسبب هذا الإلحاد وَمَن لا دين لهم، أما انتشار الإسلام فهو بلا شك قَلَّلَ الحروب وحقن دماء الناس ونشر في الناس الحياة الصحيحة السَّمْحَة، فأكبر نسبة للحروب وأكبر نسبة للقتلى بسبب انتشار الملحدين وبسبب الأفكار التي رَوَّجُوها لِينشروا إلحادهم مثل الأفكار الماركسية والشيوعية، ومثل لينين وماركس والفكر النازي الذي تَبَنَّاه هتلر وغير ذلك قتلى بالآلاف، بل بالملايين، الحرب العالمية الأولى والثانية كل هذا بسبب تكريس قضية المادية، وأن الإنسان لا يحيا على هذه الأرض إلا لتحقيق مصالحه الشخصية فقط أينما كانت ولاحت له من أي وجه، حصلها وذهب إليها بأي طريقة، لا توجد مبادئ ولا قيم ولا أخلاق ولا رأفة ولا رحمة ولا مشاعر عند الناس فلذلك يقتل ويبيد ويسرق وينهب ويفعل ما يشاء وما يحلو له من أجل أن يحصل غايته



وشهوته ومصلحته المرادة، تلك كانت أول توصية من توصيات المؤتمر، أن الدين وَهْمٌ خطير يؤدي إلى العنف والحروب، وكما يقال في المثل: رَمَتْنِي بدائها وانْسَلت؛ لأن هذا الأصل هو عندهم وهم أصحابه وهم الناشرون له وهم الذين يؤصلون له كما ذكرنا.

التوصية الثانية للمؤتمر: أنه ينبغي التخلص من الدين، وسيقوم العلم بهذه المهمة.

التوصية الثالثة والجديدة على الملحدين: أنهم قالوا: لا نحتاج إلى إله لِنكون على خُلق وسيحل محل الإله العلم المادي، وهذا هو الجديد الذي جاءوا به، وجود بديل للإله، وهذه كانت توصية المؤتمر وشعار المؤتمر العام، وجود بديل للإله. وهم يُطلقون على أنفسهم الآن بعض المصطلحات الجذابة مثل: الساطعون والمثقفون والمضيئون والأذكياء والمشرقون، وكل هذه المصطلحات يُطْلِقُونها على أنفسهم حتى يترجم العقل الباطن أن مَنْ لم يتبعهم أغبياء مظلمون متخلفون وظلاميون. وقد تَبَنَّوا كُلَّ المفاهيم العلمية التجريبية بزعمهم ويرفضون المفاهيم الغيبية، ويقولون: لا نؤمن إلا بما يقرره العلم والحس، الاثنان معًا، هذا الذي نؤمن به، أما المفاهيم الغيبية التي لا تقوم على أسس علمية في زعمهم، فهذه لا نقبل بها ولا نقرها، وأول هذه المفاهيم الغيبية وجود الإله، فهو

غيب فلا نقر به وننكره، فقامت قائمتهم على الأمر المادي والحسي وأنهم لا يؤمنون إلا بكل أمر محسوس فقط يشعرون به بالحواس الخمس ويثبته العلم التجريبي، وطبعًا؛ لو أننا تكلمنا في الأمور العلمية الموجودة، سَتَجِدُ كل الأمور العلمية تنقض كلامهم مثل اكتشاف الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية، كل هذا ينقض ما يقولون، هل تستطيع أن تمسك المغناطيسية؟ لا يمكن! ومع ذلك تؤمن بها! الموجات التي تنقل الأصوات، فمن الممكن أن تجلس هنا وتكلم أحدًا في أمريكا، فالكلام يتم عن طريق أمواج أنت لا تراها، لكن أنت موقن أنها موجودة وتؤمن بها ولا تراها، فأنت انتقلت من المادة إلى ما وراء المادة وآمنت بها.

والسؤال الآن هل المادة هي الخالقة؟ وهل هي أزلية؟

وحتى نهدم قضية المادية بِرُمَّتَها لابد أن نعرف ما هي المادة، وماذا تعني أزلية المادة التي يزعمونها؟ وبهدم هذا الأمر ينهدم عندهم إلههم المزعوم، لأنهم يزعمون أن المادة هي الخالقة، وأن الكون تَكَوَّنَ من المادة الموجودة، تلك المادة الصماء العمياء الجاهلة التي لا تتحرك إلا بتحريك الإنسان لها، والتي يفعل فيها الإنسان ما يشاء، ولا تستطيع أن تقول شيئًا، هي الخالقة لهذا الكون العظيم بنظامه الكامل المتكامل!

ماهي المادة؟

المادة هي كُلُّ ما يشغل حيزا من الفراغ فهـو مـادة، أي الأمـر المحسوس، وهي أنواع، مادة صلبة وغازيـة وسـائلة، وتتحـول إلى أشياء كثيرة صلبة، مثل المكتب والكوب، سائلة مثل الماء وتتـشكل على شكل ما تأخذه، والمادة الغازية مثل الأكـسجين والنيتروجـين والغازات الموجودة، وتتكون المادة من ذرات، ويقولون: إن المكون الأساسي للمادة هو الذرة، والجزيئات عبارة عن ذرات مـع بعـضها البعض، إذن هناك جزيئات وهنـاك ذرات، مـثلًا: ذرة الأكـسجين مع ذرتين هيدروجين اسمه جزيء المـاء، فـالجزيء إمـا أن يكـون مركبًا من ذرات بعضها مع بعض وهـو أنـواع كثـيرة، هـذه المـادة المكونة من ذرات وجزيئات عندهم هي الخالقة لهـذا الكـون!، فـما الذي اضطر الملاحدة أو الماديين أو الطبيعيـين أن يقولـوا أن المـادة هي الخالقة؟ لأنهم لو أقروا أن الكون له بداية، وأن المـادة مخلوقـة، سَيُقِرُّون أن هناك إلها بلا شك، وبالتالي قضية التسلـسل مَـن خلـق مَن، ومَن خلق مَن؟ إلى ما لا نهاية ستصل إلى أن هناك خالقًا خلـق هذا المخلوق، فَلِكَي يخرجوا من إثبات وجود إلـه قـالوا: إن المـادة أزلية حتى يقروا فيما بينهم بعدم وجود إله؛ لأن معنى مـادة أزليـة، أي أنها لم تخلق بل أوجدت نفسها بنفسها، وهذا ما اضطرهـم لقول

هذا الكلام. ولكي ننقض الكلام عن أزلية المادة وأنها الخالقة يجب أن نعرف تركيب المادة، وهل هي مركبةٌ من تراكيب منقسمة أم شيء واحد أصم بكتلة واحدة؟ لماذا نقول هذا الكلام؟ لأن الأزلي لا يتركب من تراكيب متعددة، وهذا من صفاته أنه ليس مركبًا - وأنه خارج الزمان والمكان، فلو قلنا: إن المادة مركبة وموجودة داخل الزمان والمكان، إذن نحن نهدم الأصل الذي بَنَوا عليه اعتقادهم، ونثبت أنه لا توجد مادة أزلية، وبالتالي هناك مادة مخلوقة ولها خالق، أصبح الكلام الذي سنسير عليه واضحًا الآن. إذن هم يقولون: إن العنصر الأولي المكون للمادة هو الذرة، وهذا غير قابل للتجزئة والانقسام، وهذا أول شيء يقولونه حتى يثبتوا أنها أزلية، وهذا ما قاله عالم اسمه ديمقراطيس، حيث قال: إن المكون الرئيسي للمادة هو الذرة، وإنها غير قابلة للتجزئة أو الانقسام، و لو هدمنا هذا التعريف فنحن نهدم المادة الخالقة بِرُمَّتِهَا، وهذا أول أمر عندهم في قضية الخلق والتكوين، من الذي خلق المادة؟ فلو هدمنا هذا الأمر إذن لا يوجد مادة خالقة وهي مخلوقة ولها خالق، النظرية الذرية أو المفهوم الذري، والتي تقول: إن المادة ترد ابتداء الى عناصر أولية صلبة، وهذه العناصر تتكون من جزيئات صغيرة، وهذه الجزيئات الصغيرة هي الذرات كما

ذكرنا، فإن جزيء الماء يتكون من ثلاث ذرات، اثنين هيدروجين وذرة أكسجين، وبالتالي فهذا الكلام أن العناصر تتكون من مكونات صغيرة هي الجزيئات وأن العنصر الفعال المكون الأساسي هو الذرة، ولكن ليس أقل عنصر في المادة هو الذرة، لأننا سنرى أن الاكتشافات الحديثة تقول: إن هناك ما يُسَمَّى الكوارك، وهي أصغر مكون في المادة، وليست الذرة، فالذرة سيكون بها إلكترونات وبروتونات ونيترونات، وستنقسم النيترونات بعد ذلك إلى كوارك وهي أصغر مكون في المادة، ولا يرى بالعين المجردة، نحن الآن ننتقل من الأمر المادي إلى ما وراء المادي حتى نبدأ في هدم هذا الأمر هدمًا لا قومة بعده – الملحدون - لا يؤمنون إلا بالأمر المادي؛ لذلك سُمُّوا بالماديين، والمادة عندهم هي الخالقة، الأمر المحسوس هو خالق الكون، كما يعترفون بذلك. وبالتالي فلو أثبتنا أن داخل المادة أشياء لا تُرى بالعين ولا تحس، إذن سننتقل معهم من الأمر المادي إلى ما وراء المادة، ولو انتقلنا إلى ما وراء المادة وأقروا به، إذن انتهى الموضوع، لأننا سنقول إن هناك خالقًا لهذا الكون، وأنت لا تراه، فإذا زعمت أنك لا بد أن تراه، أو أن تلمسه، أو أن تشمه، أو أن تحسه، كل هذا سيكون غير مقبولٍ؛ لأن إلاهك المزعوم فيه أمور أنت لا تراها ولا تحسها وتعترف بها

علميًّا، فنقول: إن نظرية المفهوم الذري تقول: إن العناصر تتكون من جزيئات وعناصر صغيرة هي الذرات، هذا المفهوم الذري فتح أفقًا جديدًا أمام الفكر المادي، لماذا؟ لأن الإنسان أصبح بإمكانه معرفة المكون الرئيسي للمادة فقط سيكون الكون. وهذا كان اكتشافًا خطيرًا عندهم ولا يعرفون أن هذا الاكتشاف فتح عليهم بابًا لتقويض الفكر المادي وهدمه، ولو أنهم علموا ذلك ربما لم يعلنوا عنه، وبعد فترات من الزمن تطورت العلوم واصبح هذا المفهوم خاطئًا عندهم؛ لأن هذه النظرية جاءت لِتُقَوِّضَ الفكرَ المادي على الحقيقة، على عكس ما كان يريد دالتون الذي بدأ باكتشاف هذا المفهوم، لأن الذرة الآن بعد هذا الاكتشاف لم تعد جُسَيْمًا صلبا، ولم تعد الذرة هي المكون الرئيسي للمادة، بل تم اكتشاف مكون أصغر من الذرة بكثير جدًّا يسمى الكوارك، وتم اكتشاف الإلكترون الذي يُعرَّف بأنه أصغر كمية من الكهرباء يمكن الحصول عليها، وهي الشحنات، هذا هو الإلكترون، هل الكهرباء هذه علم مجهول الطبيعة أم معلوم الأثر؟ الإجابة.. مجهول الطبيعة معلوم الأثر. هل تستطيع أن تمسك بعضًا من الكهرباء في يدك؟! لا يمكن! فكيف نستدل على الكهرباء؟ بالأثر، أي أننا لو سألنا: هل هذا السلك به كهرباء أم لا؟ بالتأكيد هو

موصول بمصدر كهربائي، وأنت لا تعرف به كهرباء أم لا، ولو كان به كهرباء وفصلت الكهرباء لن تعرف لأنك لن ترى شيئًا، فنحن ننتقل معهم باكتشاف الإلكترون لأمر وراء المادة أمر غيبي سيؤمن به لا محالة، فنقول: إنه عندما تم اكتشاف الإلكترون كَمُكَوِّن من مكونات المادة تغير عندهم مفهوم المادة؛ لأن هذا سَيَعْنِي أن المادة عبارة عن كهارب متعددة تُسَمَّى إلكترونات، فمع ظهور الاكتشافات والظواهر الكهربية تم اكتشاف المجال.. وهل هو أمر محسوس أم نعرفه أيضًا بالأثر؟ المجال أمر غير محسوس معلوم الأثر و أهمية المجال في المادة طغت طغيانًا كبيرًا جدًّا، وأصبح له استخدام كبير بعد أن اكتشف أرستو أن الشحنة الكهربية المتحركة تولد مجالًا، واكتشف فاراداي أن التغير في المجال المغناطيسي يؤدي إلى تولد مجال كهربي و في الحالتين، سواء المغناطيسي أو الكهربي، المفهوم المشترك العام حدوث مجال، وتلك بداية اللجوء لمفهوم غير مادي لتفسير وقائع مادية، وبتلك الخطوة أيضا انتقلنا من المادة إلى ما وراء المادة. يتكلم الدكتور أحمد زويل عن أصغر مكون للمادة، فما هو إذن؟ يقول: إنه ليس الذرة، فيقول: إننا لو أردنا قياس الذرة إلى حجم جوزة القطن الصغيرة ذات طول ١٠ سم وأردنا قياس الذرة بالنسبة لها، فإن حجم الذرة لا يزيد على

جزء من بليون من حجم جوزة القطن، وبالتالي فإن تلك الذرة شيء دقيق جدا، وهذا الحجم الذي هو جزء من مليون ينحل إلى (نواة – وإلكترونات) والنواة تتألف من(بروتونات - ونيترونات)والبروتون مؤلف من كوارك و هو أصغر مكون في المادة، وما هي صفة الكوارك؟ لها جزء سالب وموجب، ولا أحد يستطيع رؤيته ولا قياسه، والعلم الحديث وصل بذلك لأصغر مكون للمادة وهو الكوارك، وكما رأينا أن حجمه صغير جدًّا يعني يحتاج إلى أجهزة دقيقة في غاية الدقة تشعر بوجوده، إنه موجود بإحداثيات معينه، وهذا لا يستطيع أحد رؤيته ولا قياسَه، وكذلك الإلكترون لا يمكن قياسه أبدًا، وبالتالي وبهذا الأمر، ابتعدت الفيزياء التي كانت سببًا في وجود المادية عن المحسوس إلى ما وراء المحسوس إلى الغيب، فبذلك سقطت فكرة المادة تمامًا، وسقط الفكر المادي بهذا الأمر. هذا بالنسبة للمادة الخالقة، وحتى يضفوا عليها صفة الخلق لا بد أن تكون أزلية، وبالتالي نحتاج أن نُعَرِّفَ معنى الأزلي، ولو انهدم في المادة التي عرفناها وذكرنا مكوناتها.

فكرة الأزلية: لا نستطيع القول بأن المادة أو الطاقة لا تَفْنَى ولا تُستحدث من العدم؛ لأنها أصبحت تُسْتَحْدَثُ وتَفْنَى، وهي مخلوقة، إذن هناك خالق غير الخالق الذي تزعمونه، إذن هناك

خالق للكون، وسنتكلم كيف وصفوا هذا الخالق، لكن نحن وصلنا معهم إلى أن يعترفوا بوجود خالق لهذا الكون.

ما معنى الأزلي وتعريفاتهم للأزلي؟

هو شيء له صفات معينه، منها: أنه لا يكون مركبًا، بل يكون بسيطًا ولا يتركب، وغير قابل للتجزئة، ولا يمكن التدخل فيه، كما أنه خارج عن الزمان والمكان، فكل تلك المواصفات لا تنطبق على المادة؛ لأن المادة عرفنا أنها مركبة وتدخل في تراكيب، وقابلة للتجزئة، وموجودة في الزمان والمكان، إذن كل تلك المواصفات التي وصف بها الأزلي ليست موجودة في المادة، إذن المادة الآن غير أزلية، وطالما أن المادة غير أزلية بالتالي لا تصلح أن تكون خالقة، لأن كونها غير أزلية يكون هناك بداية لوجودها، فهي لم تكن موجودة ووجدت، فَمَنِ الذي أوجدها؟ إذن؛ هناك خالق أوجدها، وهي لا تصلح أن تكون خالقًا، والماديون باكتشافاتهم التي يكتشفونها شعروا أو لم يشعروا قَوَّضُوا الفكرةَ المادية التي يَلْهَثُون وراءها، فنحن الآن نُبَرْهِنُ على عدم أزلية المادة، ويظهر عدم أزلية الزمان والمكان؛ لأن من صفات الأزلي أن يكون خارج الزمان والمكان، وبالتالي الزمان والمكان وُجِدَ في وقت لم يكن موجودًا قبله، وأي شيء على الإطلاق لا يملك صفة الأزلية لا

يمكن أن يكون خالقًا، وبالتالي نحن الآن هدمنا الأصل المادي الذي قامت عليه كل نظرياتهم، وأصبحت تلك المادة الخالقة – عندهم – لم تكن خالقة؛ بل إن القوانين التي وضعت بعد ذلك مثل قوانين نيوتن ودالتون وبسكال وغيرها من القوانين هدمت مفهوم أزلية المادة، فأصبحوا في حيرة من أمرهم. أيضًا من القوانين التي تم اكتشافها وتقضي على النظرية المادية أو أزلية الكون، قانون الديناميكا الحرارية المعروف بالقانون الثاني للديناميكا، والذي ينص على أن "جودة" الطاقة تَتَدَرَّك (تنزل لمستوَى أدنى) بشكل لاعكوس، وهذا هو "مبدأُ تَدَرُّكِ الطاقة"بمعنى أن الجسم الحار (هذا الكوب مثلًا) يشع حرارة الآن، وهذه الحرارة تظل تشع في الغرفة أو في المكان حتى تأخذ درجة حرارة الغرفة وتبرد وتزول الحرارة "هذا هو قانون الديناميكا الحرارية، أن الجسيم الحار أو الجسم الحار يبعث الحرارة حوله حتى يأتي يوم تنتهي هذه الحرارة، أي يصبح لا وجود لها. والكون عبارة عن أجسام فيها إشعاع وحرارة، كالمجموعة الشمسية مثلًا، تبعث الضوء والطاقة من حولها حتى يأتي يوم تزول فيه هذه الحرارة وهذه الطاقة، ويكون هذا إيذانًا بفناء الكون. وهذا القانون الذي تَوَصَّلَ به مخترعه إلى فناء الكون يعني أن الكون ليس أزليًّا؛ بل الكون له بداية، ومعنى

أن له بداية أن له خالقًا، وهذا ما لا يريدون قوله أو الإقرار بـه. أي مكان صغير بالمقياس يتألف إلى ذرات، والمكان الكبـير يتـألف إلى نجوم مثلًا، الكوكب الذي نعيش عليه كله وشمسنا التي نـستدفئ بها في الكون عبارة عن نجم كبير، فـنجم مـن النجـوم يتحـول بـه ٥٦٤ مليـون طـن مـن الهيـدروجين إلى هيليـوم، وهـو غـاز مـن الغازات، وذلك في كل ثانية، وهذا الكلام نستخدمه مع من يقـول أن الكون وُجِدَ بصورة عشوائية أو صدفة، نقول انظر إلى الشمس، هذا النجم الكبـير يتحـول منـه كـل ثانيـة ٥٦٤ مليـون طـن مـن الهيدروجين إلى هيليوم، انظر على مر السنين الماضية كم ثانية في كل وقت تحول هذا التحول، هل يحدث كل ذلك بصورة عشوائية كـما يقولون؟! طبعًا كلام به خَلَلٌ كبير جدًّا، وسنرد عليه بالتفـصيل إن شاء الله. الشاهد أن الإشعاعات والتحول من هيدروجين لهيليـوم يتم به انتشار الطاقة بصورة كبيرة في الكون، فتشعر بالدفئ الموجود لأنه يتحول إلى ضـوء وملايـين مـن الـسعرات الحراريـة، العلـماء يقولون: لو كانت الشمس في مكان غير مكانها بقدر ميـل قريـب، فإن الحرارة المنبعثة منها سَتَحْرِقُ العالمَ كُلَّه، وهذا الكون لـن تقـوم له قائمـة، فهـل الـشمس في هـذا المكـان بهـذا البعـد عـن الأرض وضعت هكذا بصورة عشوائية؟!! ويقولون في تفسيرهم: إن يومًـا

من الأيام ستنفجر الشمس-بصورة كبيرة جدًّا لا مركزية- انفجارًا مرعبًا ينفذ بعده الوقود والطاقة التي تشع ويعقبه حركة انكماش مركزية، وتتقلص فلا يُتصور أزلية الشمس بعد ذلك، والكون كله يتألف من أمثال هذه الشموس، فهو إلى زوال. أينشتاين عندما اكتشف النظرية النسبية التي تنص على أنّ كلّ أنواع الحركات هي حركات نسبية، وأنّ الوقت لم يعد ثابتًا كما كان مفترضًا من قبل؛ بل أصبح مفهومًا متغيّرًا غير محدود بمكان معيّن، بالإضافة إلى توصّله من خلال هذه النظرية إلى أنّ الوقت متوقّفٌ على سرعة الجسم المتحرّك ممّا أنتج ما يُعرف بتقلّص الزمن.

لذلك؛ فالكون يحدث به تمدد وانكماش، لذا فالمجرات التي بالكون تتمدد وتتباعد عن بعضها البعض بصورة هائلة وعن طريق ظاهرة تُسَمَّى الإزاحة الحمراء تتباعد المجرات عن بعضها تباعدًا طرديًا، ويتمدد الكون بهذا الأمر، وبالتالي فالنظرية النسبية لأينشتاين تثبت أن الكون إمَّا أن يكون به تمدد أو انكماش، لكن تلك النظرية أَوْقَعَتْهُ في مأزق كبير جدًّا لماذا؟ لأن نتيجة الانكماش الحاصل أو التمدد سيأتي وقتٌ من الأوقات وسيكون له نهاية، فتلك النظرية أَوْقَعَتْهُم في مأزق شديد؛ لأنها أيضًا تهدم الفكر المادي عندهم، وتهدم فكرة أن الكون أزلي، فماذا فعل أينشتاين

لِيخرج من هذا المأزق؟ أدرج ما يسمى بالثابت الكوني، وهو عبارة عن ثابت فيزيائي وضعه حتى تتفق معادلاته مع مفهوم أن الكـون ثابت وساكن غير متمدد، وهو ما ثبت خطـؤه، فلقـد تمكـن العـالم الفلكي أدوين هابل مـن خـلال دراسـة تُعـرف بدراسـة الإزاحـة الحمراء لأطياف المجرات التي تدل عـلى أن المجـرات تتباعـد عـن بعضها، وأن الكون في تمدد مستمر، وكلما ازدادت المجـرات بعـدًا ازدادت سرعتُهـا في التباعـد عـن بعـضها، وبالتـالي ألغـى الثابـت الكوني الذي وضعه أينشتاين، وعندما علم أينشتاين بـذلك رجـع عن موضوع الثابت الكوني، فكان قضاء كبيرًا جـدا عـلى موضـوع أزلية الكون، لماذا؟ لأن إثبات تمدد الكون يعتبر إقرارًا بخطأ الثابت الكوني، والمجرات التي تتمدد بصورة طردية لو أننـا عُـدْنَا بـالزمن إلى الوراء نجد أن المجرات كانت أقل في التمـدد، ولـو عـدنا أكثـر نجد أن المسافات بين المجرات تَقِلُّ، وكلما عُدْنَا تقل المسافات؛ لأن التمدد الطردي حدث على مدار عصور وملايين السنين حتى نصل إلى مسافة صفر بين المجرات، وهذا الصفر عندهـم يعتبر لحظة بداية للكون، وطالما أنهم أثبتوا بداية للكون وأنه ليس أزليًّـا؛ إذن هنـاك خالق لهذا الكون، وبالتالي هو لـيس أزليًّـا، إذن لـه خـالق. وَجُـلُّ علماء الفيزياء يثبتون ذلك، عالم الطبيعة البيولوجية (فرانك آلن) في

كتاب (الله يَتَجَلَّى في عصر العلم) يقول: "قوانين الديناميكية الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا، وإنها سائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذٍ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام (فناء) عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بِمُضِيِّ الوقت"، فرانك آلن يثبت أن للكون بداية، وَمَعْنَى أن له بداية أي أنه ليس أزليًّا، وأن له خالقًا. يقول (جون كليفلاند كوتران) عالم الكيمياء والرياضيات: (تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد على سبيل الزوال والفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك، فإن المادة ليست أبدية..). فهذه الأدلة كلها تدل على أن المادة ليست أزلية ولا أبدية، بل إنها مخلوقة وفانية، وبهذا يسقط دعوى الشيوعية في كون المادة هي الأصل، والحياة هي المادة.

بعد سقوط الكنيسة كان لا بد من وجود بديل عن الرب يقنع الناس، فكانت نظرية التطور، فلذلك يعتمد المذهب الإلحادي كليًّا على هذه النظرية التي أسسها دارون. فَمَن هو دارون، وما هي نظريته؟

تشارلز روبرت داروين:

عالم حيوان، إنجليزي الجنسية، اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي حول نشأة الإنسان. ولد في إنجلترا في ١٢ فبراير ١٨٠٩، وتوفي في ١٩ أبريل ١٨٨٢، هو عالم تاريخ طبيعي بريطاني، اكتسب شهرتَه كواضع لنظرية التطور، بدأ اهتمام داروين بالتاريخ الطبيعي أثناء دراسته للطب ولكنه لم يُكْمِلْها لأنها لم تجتذبه، ثم اللاهوت في الجامعة.

أدّت رحلته على متن سفينة البيغل والتي دامت خمس سنوات إلى تميّزه كجيولوجي وانتشار اسمه كَمُؤَلِّف. ومن خلال ملاحظاته للأحياء قام (داروين) بدراسة التحول في الكائنات الحية عن طريق الطفرات، وطوّر نظريتَه الشهيرة في الانتخاب الطبيعي عام ١٨٣٨ م. ومع إدراكه لردّة الفعل الذي يمكن أن تحدثه هذه النظرية، لم يصرّح (داروين) بنظريته في البداية إلا إلى أصدقائه المقربين، في حين تابع أبحاثه ليحضّر نفسه للإجابة على الاعتراضات التي كان يتوقعها على نظريته.

وفي عام ١٨٥٨م، بلغ (داروين) أن هنالك رجلًا آخر، وهو ألفريد رسلووليس، يعمل على نظرية مشابهة لنظريته، مما أجبر (داروين) على نشر نتائج بحثه. صدر كتاب (داروين) بعنوان أصل

الأنواع في عام ١٨٥٩م، والذي كان بمثابه نقطة البداية في دخول فكرة الأصل المشترك للكائنات لِتفسير التنوع في الطبيعة في المجتمع العلمي. عُيّن داروين بعدها عضوًا في المجمع الملكي.

دارون في كتاب الإنسان ميز المخلوقات الموجودة على أساس اللون والعرق، فقال: إن الإنسانَ مراحل ودرجات، أعلاها هم البيض، والدرجة الدُّنيا هم الزنوج، وقال: إن البِيض لهم صفات كذا وكذا، وأن البيض لهم حق في المجتمعات، والزنوج ليس لهم حق، والحروب التي نشأت، في المجتمعات بعد ذلك بين البيض والسود (الزنوج) بسبب هذا التأصيل الذي ذكره دارون. جميع الحيوانات والكائنات الموجودة الآن تكلم عنها دارون في كتاب أصل الأنواع كتفسير لوجود الحياة، ثم ألف كتابًا عن تكوين الإنسان وكيفية نشأته، ويأتي على قضية الكون وكيف وجد، فيقول: إنه وجد عن طريق الانتخاب الطبيعي والصدفة المحضة، وسيدلل على ذلك ببعض الأدلة الواهية كما سنتكلم عنها، بذلك تكون المراحل الثلاث التي يتكلمون عنها قد تمت الحياة -الكون- الإنسان.

ما هي نظرية دارون؟

يبني دارون في كتابه أصل الأنواع فكرتَه على أساس مَادِّيٍّ بَحْت، ويتكلم عن النوع وليس الجنس، ولذلك أسماه "أصل

الأنواع" وركز فيه على تطور الخلية وليس تطور العقل، وتقوم تلك النظرية على فكرة التطور المتدرج.

نظرية دارون تقوم على قضية التطور المتدرج من الخلية البدائية إلى أن اصبحت إنسانًا على هذه الهيئة، فالتطور يبدأ بصيغة أحادي الخلية، خلية بسيطة أو متعددة، فتتطور إلى صفة أكثر تعقيدًا عن طريق شيء يُسَمِّيه التكاثر أو القفزة البيولوجية أو العلفرة، ثم الحياة بعد ذلك. هذه نشأة الحياة عند دارون، فيقول: إن الإنسان نفسه لا يعدو إلا أن يكون توليفة من عدد لا يُحصى من الخلايا، فتطورت الخلية حتى ظهر الحيوان الدودي، ومنها تطور عبر حِقب زمنية كبيرة إلى الرخويات، وتطورت عقب حقب زمنية إلى أنواع كثيرة من الحيوانات، وحيوانات كثيرة لم تكن موجودة وُجِدَت من الرخويات، وهذه الحيوانات الجديدة تميزت عن سابقتها الرخويات بأن لها أسطحًا ولها حبلًا متينًا يمتد بطول جسدها و هو العمود الفقري، ويقول: إن الحبل المتين هذا هو أول درجة سلم في سلم التطور؛ لأنها ستؤدي بعد ذلك إلى نشوء العمود الفقري الذي ينشأ منه الحيوانات الفقارية ومنه الإنسان، فهذا يعتبر العمود الصلب بالنسبة لتطور الحياة. هذا الحبل أو العمود الفقري أدى إلى نشوء الأسماك، ثم تبعه البرمائيات، ثم

الزواحف، ثم الطيور، و تميزت بأنها تبيض، ومن الزواحف نشأت الطيور، ثم ذات الثدي، وتفرع منها شعب متفرقة من الأحياء أهمها من وجهة النظر البشرية ما يسمى بالصعابير أو الليامير، ومنها يمكن أن يكون نشأ الإنسان. ويقول: إن الإنسان نشأ من القردة العليا وهي الشمبانزي أو الغوريلا وتطور منها إلى هذه الصورة، ومر بمراحل، بأن كان أكثر شبها بالقردة العليا وهي الغوريلا أو الشمبانزي، وهذه النظرية تم نقضها نقضًا كليًّا وجزئيًا من قبل العلماء الغربيين أنفسهم كما سَنُبين.

تزعم هذه النظرية أنّ أصل المخلوقات حيوان صغير، نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغييرات في تكوينه ممّا أدّى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث في الأبناء حتى تحول مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقًا أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات، حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان، وأساس هذه النظرية يقوم على أمرين اثنين:

الأول: الانتخاب الطبيعي.

والثاني: الصدفة أو العشوائية.

١- الانتخاب الطبيعي: تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنات الضعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وذلك ما يسمّى بزعمهم بقانون (البقاء للأصلح)، فيبقى الكائن القوي السليم الذي يورث صفاته القوية لذريته، وتتجمع الصفات القوية مع مرور الزمن مكونة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو النشوء الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطور وذلك هو الارتقاء.لم تقم هذه النظرية بتقديم أي تفسير لمواضيع كثيرة، منها:

١- الحشرات - الطيور- بعض اللبائن (كالخفاش) - بعض الزواحف الطائرة (انقرضت).

أ- أصل الحشرات: لا تقدم هذه النظرية أي تفسير لأصل الحشرات مع أنها تمثل ٨٠ ٪ من مجموع الحيوانات.

ب- أصل وتطور القوارض غير معروف، مع أن أعدادها هائلة وتزيد على أعداد الثدييات الأخرى.

ج- أصل الطيران بجميع أشكاله غير معروف تمامًا، وكما هو معلوم هناك أربعة أنواع من الحيوانات الطائرة.

إذن؛ نظرية التطور لا تُقَدِّمُ أَيَّ جواب حول سؤال: كيف ظهر الطيران عند هذه الحيوانات؟ إذن، ما بالك بنظرية لا تقوم بتفسير ٩٠ ٪ من الظواهر التي من المفروض تناولها ولا تستطيع تسليط الضوء عليها؟ وما دامت هذه النسبة الكبيرة من الظواهر غير معروفة وغير مفسرة من قبلها، فكيف يمكن عدها نظرية صحيحة؟ وهل هناك نظرية علمية أخرى غير هذه النظرية أبدت عجزها عن تفسير ٩٠ ٪ من الظواهر التي تصدت لتفسيرها؟ وهل يمكن أن تقبل الأوساط العلمية مثل هذه النظرية؟

٢- كيفية ظهور الحياة في الخلية الحية الأولى غير معروفة، والقول بالمصادفة ليس جوابًا علميًّا، بل جواب يصادم العلم؛ لأنه كلما زادت معلوماتنا عن الخلية الحية ومدى تعقيدها تأكدنا أكثر وأكثر من مدى استحالة ظهور الموجودة في الإنسان "D.N.A" مُصَادَفَةً. ويكفي أن نعلم أن جزيئات تحتوي على معلومات لو قُمْنا بتسجيلها على الورق لاحتجنا إلى ٩٠٠ ألف صفحة تقريبًا، وهذا يعادل ٣٤ ضعف المعلومات الواردة في دائرة المعارف البريطانية. فكيف يمكن إذن أن تظهر الخلية إلى الوجود مصادفة؟ وقد علم من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية استحالة تكون

جزيئة واحدة من البروتين عن طريق المصادفة خلال أضعاف عمر الكون، فكيف يمكن ظهور خلية واحدة حية بطريق الصدقة؟

٣- تَدَّعِي هذه النظرية أن الأحياء قد تطورت من خلية واحدة إلى أحياء ذات خلايا متعددة ثم تشعبت مساراتها في التطور حتى ظهرت الأحياء الحالية التي تبلغ أعدادها عدة ملايين.

لذا؛ فحسب هذه النظرية، فلا بد من وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي أن أعداد الحلقات الوسطى يجب أن تزيد بعشرات المرات على عدد الأحياء الموجودة حاليًّا. أي أن عدد أحياء الحلقات الوسطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على أي حلقة وسطى.

٢- الصدفة أو العشوائية: يقولون: كيف تطور الحيوان من الخلية في الوقت الذي لا توجد فيه ميكروسكوبات ولا أجهزة دقيقة؟ إنهم يتخيلون شكل الخلية وتكوينها، ولكن الخلية الآن قد أصبحت بالنسبة إليهم كمدينة كبيرة جدًّا، عظيمة البناء يصعب هدمها، وفي جسم الإنسان خلايا كثيرة جدًّا أكثر من ٦٠ بليون خلية، وانتبه إلى أن تلك الخلايا في جسم الإنسان ذات نطاق بنائي

معقد، تخرج إشارة من المخ فتتحرك الخلايا معًا في نطاق بنائي معقد. لاحظ أن فكرة داروان هذه لم يعترف بها أحد كحقيقة علمية؛ بل ما زالوا يُطْلِقُون عليها نظرية، والنظرية تُسَمَّى نظرية لأنها قابلة للصواب والخطأ، وهناك فرضية، الفرضية أمر مفترض لا يرقى إلى نظرية لكن متى يكون نظرية؟ عندما يتم تنزيلها على الواقع وتحقق النتائج التي ذُكرت في النظرية، فإذا تطابق الواقع مع النظرية فهي نظرية صحيحة بالتجارب الكثيرة التي لا تتخلف فتصبح حقيقة، ماذا لو جاء وقت وأثبتت التجارب العلمية تخلف النتائج النظرية؟ لن تكون النظرية صحيحة، ولذلك تم إلغاء نظريات كثيرة من سنوات وحل مكانها نظريات أخرى، واكتشفوا أن هذه النظرية خطأ، وتلك ليست صحيحة، فالنظرية قابلة وعرضة للخطأ والصواب، فماذا عن نظرية دارون؟

لقد تم نقض نظرية التطور عند دارون بعدة صور:

لقد شهد القرن التاسع عشر ميلاد نظريات أثرت في الحياة الإنسانيه تأثيرًا خطيرًا وسلبيًّا مثل: النظرية الماركسية ونظرية دارون في التطور ونظرية فرويد في التحليل النفسي.

ولعل نظرية التطور لدارون هي أخطر هذه النظريات؛ لأنها حاولت البرهنة على "حيوانية الإنسان". وعندما يتم إثبات هذه

الصفة الحيوانية في الإنسان فَمِنَ السهل قبول النظرية الماركسية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية وما يشبع بطنه. وكذلك يسهل قبول نظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان وغاياته إلى غريزته الجنسية.

وهناك ظاهرة تلفت النظر في موضوع نظرية التطور، لأن هذه النظرية خرجت عن كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخطأ، إذ تحولت إلى أيدولوجية" يدافع عنها أنصارها، ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مُشِينة من الناحية العلمية والأخلاقية، وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى، فلا نرى عالمًا في الفيزياء أو في الكيمياء أو في أي علم من العلوم يقوم بعملية تزوير لإثبات صحة نظريته أو صحة القانون الذي اكتشفه؛ لأن غاية العلم هو الوصول إلى الحقيقة.

بينما نر ى أن عمليات التزوير العلمية منحصرة في موضوع نظرية التطور فقط. وَأُولى عمليات التزوير هذه قام بها العالم الألماني "ارنست هيجل" وكان من أنصار نظرية التطور. لما رأى أن صور الأجنة لا تتطابق تمامًا مع هذه النظرية قام بعمليات رتوش وحذف في صور الأجنة البشرية لكي تتطابق مع نظرية "التلخيص، إحدى النظريات السابقة التي قُدِّمَت كبرهان على نظرية التطور، ثم نفض

العلماء أيديهم عنها بعد ثبوت خطئها. ولكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير هذه وأعلنها في إحدى الصحف وتحدى فيها "ارنست هيجل" الذي لم ير بُدًا من الاعتراف بجريمته العلمية والأخلاقية بعد فترة صمت وتردد، فاعترف في مقالة كتبها في ١٤/ ١٢/ ١٩٠٨ بإن ما يعزيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات تزوير في الصور التي توضح بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة لكي تطابق نظرية التطور. إذن؛ فهناك مئات من عمليات التزوير -وليست عملية واحدة أو عدة عمليات- تمت في علم الأحياء وفي علم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة، قام بها العلماء من أنصار التطور.

إذن؛ على مثل عمليات الغش والتزوير هذه قامت نظرية التطور وانتشرت، وتمت بها أيضًا عملية غسيل دماغ الجماهير في هذا الموضوع، وأصبح مَن لا يؤمن بها رجعيًا وجاهلًا!!.، وهناك عملية تزوير مشهورة جرت في إنكلترة، وهي عملية تزوير "إنسان بلتداون" بدأت في ١٩١٢، فقد صنعوا جمجمة من تركيب قحف إنسان على فك قرد أورانجتون مع إضافة أسنان إنسانية إلى الفك، وقدموا هذه الجمجمة على أنها الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان.

وخدعت عملية التزوير هذه كبار علماء البيولوجيا وأطباء الأسنان الذين فحصوا هذه الجمجمة المزيفة مدة تقارب ٤٠ سنة، وألفت مئات وآلاف الكتب، وتم تقديم رسائل دكتوراه عديدة، وكتب ما يقارب نصف مليون مقالة حولها.

وفي سنة ١٩٤٩ قام "كنت أوكلي" بإجراء تجربة الفلور على هذه الجمجمة، فتبين أنها ليست قديمة (ادعى سابقًا أن عمرها يبلغ نصف مليون سنة) ثم قام "كنيت أوكلي" و"سِير ولفود لي كروس كلارك" من جامعة أكسفورد بإجراء تجارب أكثر دقة واستخدموا فيها أشعة إكس، فتبين أن هذه الجمجمة زائفة تمامًا ومصنوعة.

وجاء في التقرير الذي نشر سنة ١٩٥٣: (إن "إنسان بلتداون" ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة مِن قِبَل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر. أما عظام الفك فهي لقرد أورانج بعمر عشر سنوات، والأسنان أسنان إنسان غرست بشكل اصطناعي وَرُكِّبَت على عظام الفك. وظهر كذلك أن العظام عُومِلَت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها. وهناك حادثة "إنسان

نبراسكا" فقد عثروا على سِن واحدة لِيُعْلِنوا أن صاحب هذه السن هو الحلقة المفقودة التي يبحثون عنها، ونشروا صورًا خيالية لهذا الإنسان، بل حتى عن حياته العائلية، وقدم علماء التطور هذه السِّنَّ كدليل في محكمة "سكوبس" عام ١٩٢٥. وعندما اعترض الطرف الآخر سخروا من جهله!! ومع أن المحكمة أصدرت قرارها بإدانة السيد سكوبس" إلا أن الضجة التي أثارها أنصار التطور في الصحافة وفي المحافل العلمية جلبت عطفًا كبيرًا على المتهم، وغضبًا على المحكمة.

وفي هذه المحكمة قدم علماء التطور هذه السن كدليل لا يُنقض على صحة التطور، لأنهم اخترعوا من هذه السن الواحدة إنسانًا أَسْمَوه "إنسان نبراسكا" وأطلقوا عليه اسمًا لاتينيًّا رنانًا ليسبغوا عليه صبغة علمية. إذن؛ ألا يحق لنا أن ننظر بعين الشك إلى جميع التفسيرات المقدمة من قبل علماء التطور ولجميع ما يعدونه أدلة في هذا الصدد وهم بهذه الدرجة من البعد عن الحياد العلمي؟ أجل لقد خرجت نظرية التطور من كونها نظرية -أو فرضية- علمية يمكن دراستها ووضعها على المحك مثل النظريات العلمية الأخرى، وأصبحت "أيدولوجية" عند علماء التطور يدافعون عنها حتى ولو تَطَلَّبَ الأمر القيام بعمليات تزوير مُشِينة. ولكن، لماذا

أصبحت نظرية التطور أيدولوجية؟ لأنها النظرية العلمية الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى الإلحاد، لكونها تدعي القيام بتفسير نشأة الكون والحياة دون الحاجة إلى الخالق. فإذا ظهر أن كل نوع من أنواع الأحياء خلق على حدة، وأن الحياة لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية، لأن هذا أمر مستحيل، وأن الأحياء لم تتطور عن بعضها البعض، فلا يبقى هناك أي مجال أمام جميع العلماء سوى الإيمان بالله تعالى[(١)] . كذلك هذه النظرية مهدومة بالحلقات المفقودة في كيفية التطور عبر ملايين السنين بين كل مرحلة ومرحلة، فهو يقول: إن التطور تم عبر مئات السنين أو ملايين السنين، فإذا حدث ذلك وحتى تتحول الخلية إلى حيوان دودي، فما هي الحلقة المفقودة بين الخلية والدودة؟! وأين الحلقة المفقودة بين حيوان الدود حتى يصبح على صورة أخرى حيوانًا رخويًا، وقد تم أيضًا عبر حقب كثيرة من الزمان، ما هي الحلقة المفقودة بينهم حتى نقول بأن هذا الحيوان كان كذا وأصبح رخويًا، أين هذه الحلقة المفقودة وأين وجودها على الأرض؟ فبالطبع كل هذا الكلام يهدم النظرية شيئًا فشيئًا، والعلماء يقولون: إن هذه النظرية هُدمت بعدة

---

(١) حقيقة الخلق ونظرية التطور (كولن).

أدلة تشريحيًا وجيولوجيًا، وعندما نظرنا في علم الأجنة ومراحل تكون الإنسان في رحم أمه لم نجد به أي إشارة عن التطور.

هدم الطريق الثاني في النظرية (الصدفة أو العشوائية).

يزعم دارون أن هذا الكون والحياة وُجِدَ صدفة بطريقة عشوائية، وعلماء الغرب أنفسهم هم مَن هدموا هذه الخرافة. كتب "عالم الفيزياء البيولوجية" - فرانك ألن - مُوَضِّحًا علاقة الصدفة بنشأة الحياة، وكيف يستحيل ذلك من خلال ما تؤكده حقائق العلم الرياضي؟ يقول "ألن": إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر، هي: الكربون، الأيدروجين والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزء ذرة، فاحتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون N البروتيني الواحد، ٤٩٠٠٠ جزيئا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد. وقد قام العالم الرياضي السويسري "تشارلز يوجين" بحساب هذه العوامل جميعًا، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد، إلا من خلال رقم لا

يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وهو رقم منسوب إلى ١٠ مضروب في نفسه " ١٦٠ " مرة، كما ينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم حدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد، أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات. كما يتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنين قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين.

مثال آخر: لنضع جانبًا الجسمَ الذي يحتوي على تركيب معقد جدًّا يحتوي على المليارات من الخلايا، ولنأخذ مسألة ترتيب الأعداد من واحد إلى عشرة، ولنكتب هذه الأرقام في ورق ونضعها في كيس، ونخلطه جيدًا ثم نسحب ورقة لِنحصل على رقم واحد احتمال ظهوره بنسبة ١ : ١٠ واحتمال ظهور ١، ٢ متتاليين بنسبة ١ : ١٠٠ واحتمال ظهور العشرة متتاليين ١ : ١٠^١٠ يعني بنسبة ١ إلى عشرة مليارات، ولو سحبنا ورقة كل ٥ ثوان حتى نحسب المدة التي نحتاجها لاحتمال خروج الأرقام متتالية، سنضرب عشرة مليارات في خمسة ثم نقسم الناتج على ٦٠ لِنُحَوِّلها لدقائق، ثم على ٦٠ لنحولها لساعات، ثم على ٢٤ لنحولها لأيام، ثم على ٣٦٥

لنحولها لسنوات، نجد أنفسنا نحتاج إلى ١٥٠٠ سنة لاحتمال خروج الأرقام متتالية إن خرجت، فكيف يكون هذا الكون بهذا النظام الدقيق خرج مصادفة!!!

يقول بيورن كيرتن في كتابه (ليس من القردة) يقول: أنفقت عمري في دراسة بقايا الإنسان على وجه الأرض، فثبت لي أَنَّ أَقْدَمَ أثرٍ للإنسان كما تَدَّعُونَ سَابِقٌ لأقدم أثر للقرد في وجوده، فإن كان هناك مِن علاقة، فالقرد أَصْلُه إنسان، يقول: ولن أقارنَ بين الإنسان والقرد من حيث الشعور والذكاء والعقل والانفعال وغير ذلك، فذلك فوق طاقتي، وإنما أُقارن بين الهيكلين، فوجدت فارقًا كبيرًا. ويقول في نهاية كتابه: وهكذا ظهر الإنسان فجأة عبر بضع العشر آلاف القليلة من السنين، فَمن أين جاء؟ هل أُنْزِلَ إلى الأرض من السماء؟ هل هي عودة إلى قصة آدم وحواء؟ هذا سؤال لا يستطيع الإجابة عليه إلا- espm - (extra sensory perception men) يعني الرجال الذين لهم قدرة على الاتصال بعالم الغيب بدون واسطة مادية، يعني الأنبياء. تنبيه هام: ينبغي أن ينتبه الباحثون المسلمون قبل الخصوم من المخالفين إلى أننا لسنا نعترض على نظرية داروين - لمجرد أنها مخالفة لما جاء به النص عندنا فقط، ! كلا! وإنما نعترض على المنطق العقلي المعرفي نفسه



الذي به استجاز الطبيعيون أن يبحثوا في الكيفية التي تحولت بها المادة الميتة إلى كائنات حية، حتى زعموا أنها كلها تنزل من أصل واحد تتفرع عنه كفروع الشجرة! بمعنى أن أصل النزاع بيننا وبينهم ليس فيما إن كان قد عثر على حلقة مفقودة أو لم يعثر عليها، ولا فيما إن كان ثمة حفريات تحولية كتلك التي يتحداهم النصارى بالعثور على شيء منها! أصل النزاع في الجواز العقلي لافتراض أن الخلق وقع بِتَراكُمِ الصدف العشوائية عبر بلايين السنين، ليس فقط لأن ظهور تلك المعلومات الكونية الحاكمة لما هو صالح وما ليس بصالح في نظام الحياة على الأرض. لا يعقل أن يكون الانتخاب الطبيعي الأعمى والتطفر العشوائي الداروين طريقًا إليه، ولكن لأن الأصل المنطقي الذي على أساسه بات القوم يتطلعون لمعرفة تفاصيل الحدث الذي به أنشأ الخالق تلك الكائنات الحية على الأرض من غير مثال سابق، من خلال وسائل العلم الطبيعي وَأَقْيِسَتِهِ = أصل فاسد عقلًا ينبغي أن لا نقبله! فالمسألة إذن ليست فيما إذا كانت النظرية الداروينية نفسها قد وافقت أو خالفت ما لدينا من خبر النص في خلق البشر والدواب والطير. المسألة أعمق من هذا بكثير في الحقيقة!

قضية الإعجاز العلمي ونظرية انفجار الكون العظيم:

بداية يجب التنبيه على أنه لا يصح أن ننزل الاكتشافات التي يتم اكتشافها على الآيات القرآنية، فلا يصح أن نأخذ نظريات تكلمت عن الخلق والتكوين والحياة وننزلها على الآيات القرآنية، هذا خطأ كبير جدًّا، لماذا؟ لأن مآله إلى هدم الدين مِن حيث لا يشعرون. لأن النظرية كما ذكرنا قابلة للصواب والخطأ، فماذا لو ثبت خطأ نظرية ما، فَسَّروا بها القرآن واكْتُشِفَ خَطَؤُها سيقول الغرب: إن القرآن غير صحيح، والخطأ الكبير الذي وقعوا فيه أيضًا أنهم قالوا: إذا أصبحت النظرية حقيقة أكيدة ووجدنا في القرآن آيات تؤيدها فهذا تفسيرها، وأنزلوا ذلك على الخلق والحياة والتكوين، قالوا: أصبحت حقائق فأخضعوا آيات القرآن لتفسير علماء الطبيعة، مثل نظرية انفجار الكون العظيم التي تتحدث عن كيفية بدء الخلق.

نظرية انفجار الكون العظيم(Big Bang) تنص على أن الكون نشأ من كتلة واحدة مضغوطة حراريًّا، انفجرت وتباعدت وتمددت أجزاؤها وتناثرت، ثم بدأت العناصر تتشكل، ثم تشكلت النجوم والمجرات والكواكب.. بعض التقديرات الحديثة تُقدّر حدوث تلك اللحظة قبل ١٣.٨ مليار سنة، والذي

يُعتبر عمر الكون عندهم.وبعد التمـدد الأول، وبعـد مـرور ثانيـة واحـدة مـن الانفجـار العظـيم ظهـرت الجزيئـات الأساسـية: الكواركات، الإلكترونات، الفوتونات... وبعـد ذلـك انـسحقت هذه الجزيئات مكونة النيوترونات والبروتونات.بعد ذلك بثانيتين، أي عند "الثانية" الثالثة بدأت البروتونات والنيوترونات في الاتحاد مع بعضها البعض مُكَوِّنَةً نـوى العنـاصر البـسيطة: الهيـدروجين، الهليوم، الليثيوم. ورغم تكـوّن نويـات إلا أن الأمـر احتـاج آلاف السنين لكي تعلـق الإلكترونـات في مـدارات حـول تلـك النـوى مكونة بذلك ذرات مستقرة. ثم الْتَأَمَتْ سُحُبٌ عملاقة مـن تلـك العناصر الأولية بالجاذبيةِ لتُكوِّن النجـوم والمجـرات، وتـشكّلت عناصر أثقل من خلال تفاعلات الانصهار النجمي أو أثناء تخليق العناصر في المستعرات العظمى إلى أن أصـبح الكـون عـلى شـكله الحالي. وهذه النظرية إن كان قال بها بعض مَنْ يـتكلم في الإعجـاز العلمي مثل د. زغلول النجار، مُسْتَدِلِّينَ بآيات قرآنيـة عـلى ثبـوت هذه النظرية، وهذا كلام خطـأ تمامًـا كـما ذكرنـا لأنهـا نظريـة، ثـم إن الاستشهاد بهذه النظريـة عـلى بدايـة خلـق الكـون سـاقط كـما سَنُبين. يقول الله تعالى في سورة الأنبياء:﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقوله في سورة الذاريات: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] هذا هو متعلق مَن يتكلم في الإعجاز العلمي في دعواهم أن تصور الانفجار العظيم يُوافق خبرَ القرآن في خلق السموات والأرض، على علمهم بحصول المخالفة بين تفاصيل النظرية وتفاصيل أخبار خلق السموات والأرض عندنا في المقابل! ولا مشكلة عندهم في هذه المخالفة أصلًا! فجميع التفاصيل أمرها يهون كما يقولون بلسان الحال، ما دمنا قد وقعنا على قولٍ لبعض المفسرين يمكن حَمْلُه على الموافقة! مع أن التفاصيل هذه فيها عندنا نصوص هي أَصْرَحُ في كونها تتناول قصة خلق السموات والأرض من هذين النصين، وهي أثقل في بنائها للتصور المعرفي لدى المسلم لتلك القصة منهما، إذ هي صريحة في وصف تلك الأحداث حدثًا بعد حدث، وليس في شيء منها مع ذلك ما يوافق قصة الانفجار الكبير هذه أصلًا، دع عنك مخالفة الوصف النصي لأفعال الخالق فيها لهذا التصور الطبيعي الذي تقوم عليه تلك النظرية، فلننظر أولًا فيما ورد في تفسير آية الأنبياء من أقوال أئمة التفسير رحمهم الله.

اختلف المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] على أقوال ثلاثة:

الأول: أنَّ السموات كانت رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات. رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس وبه قال عطاء وعكرمة ومجاهد في رواية والضحاك.

الثاني: أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله تعالى. رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة.

الثالث: أنه فتق من الأرض ست أرضين فصارت سبعًا، ومن السماء ست سموات فصارت سبعًا. رواه السدي عن أشياخه وابن أبي نجيح عن مجاهد. هذه الأقوال الثلاثة ليس منها ما يمكن أن يوحي بشيء من الموافقة لتصور الانفجار أو الانتشار عند مَن يدري اللسان العربي حق الدراية. فلفظة فتق ليست مرادفة للفظة فجَّر بحال من الأحوال. الفتق إنما يكون بالمباعدة بين متلاصقين، أما التفجير فَنَسْفٌ ونشر وتدمير، أو في حالة نظرية الانفجار: (انتشار سريع للطاقة في جميع الجهات بما يشبه الانفجار)، ولا تستوي الصورتان أصلًا. وقد وردت لفظة فجَّر في القرآن في غير

موضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] وقوله: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١] وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٤] وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] ونحوها.

فهل يستوي المعنى عندهم لو وضعنا لفظة فجرنا في محل فَتَقْنَا في هذه الآيات؟ كلَّا - ولا شك، ولهذا لم يقل سبحانه كانتا رَتْقًا ففجرناهما، والأمر واضح لمن تأمله بِتَجَرُّدٍ. ثم إن النظرية يعتقد أصحابها أن الانفجار المزعوم كان سببًا في نشأة المادة نفسها بأنواعها المختلفة التي تكونت منها النجوم وما يدور حولها من كواكب، وهو التصور السائد عندهم الآن. ففي الوقت الذي يجب على الإعجازيين أن يعتقدوا أن السماء والأرض كانتا جسمين ملتصقين في أول الأمر على القول الثاني الذي تَعَلَّقُوا به. فإن نظرية الانفجار تقول بخلاف ذلك في تصور الحدث نفسه الذي هو أشبه بالانفجار أو الانتشار السريع لا الفتق، وفي تصور الشيء الذي وقع عليه ذلك الحدث الذي هو الطاقة لا الأجسام المتلاصقة التي يتصور وقوع الفتق عليها، وهي في حالتنا: جسم يُقَالُ له الأرض وجسم أو أجسام يقال لمجموعها السموات، ومع ذلك فقد تعلق

عامة الإعجازيين بالقول الثاني: أن السماء والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله تعالى متخذين من نظرية الانفجار الكبير مرجحًا له، ومتخذين منها في نفس الوقت دليلًا على صدق الآية.

القول الثاني: مستنده عند المفسِّرين ما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] يقول: ملتصقتين، قال ابن كثير في تفسيره: يقول تعالى منبهًا على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ أي الجاحدون لإلهيته، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير؟ فكيف يليق أن يُعبَد معه غيره، أو يُشرَك به ما سواه، ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا، أي كان الجميع متصلًا بعضه ببعض، متلاصقًا متراكمًا بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا، والأرض سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانًا،

وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء. في هذا الأثر الذي أورده ابن كثير في تفسيره، يقرِّر ابن عباس رضي الله عنهما تصورًا يغفل عنه كثير من أصحاب الإعجاز ممن تمسكوا ببعض ما روي عنه في تلك المسألة، وهو أن رتق السماء كان هو سبب ظلمتها، فلما فتقها الله تعالى خرج منها النور وامتاز الليل من النهار. بمعنى أن السماء خلقت مظلمة ثم أخرج الله الضياء من الشمس والنجوم بذلك الفتق. فهل هذا ما تنص عليه نظرية الانفجار الكبير؟ كلَّا - ولا شك! بل تنص على أن الطاقة وفوتونات الضوء تحولت إلى نجوم ملتهبة، انفصلت عنها الأرض الملتهبة والفوتونات الصادرة عن المواد المنصهرة هي مصدر جميع الضياء في الفضاء، فكان الأمر مغمورًا في الضياء أول الأمر ثم ظهرت الظلمة (وامتاز الليل من النهار بعدما جفت الأرض وأصبحت كُرَةً صلدة جافة لها وجه مقابل للشمس وظهر مغيب عنها! والمشكلة، ليست في هذه المخالفة نفسها! إنما المشكلة المعرفية الكبرى إما بِرَدِّ هذا التأويل للأثر أو بِرَدِّ الأثر نفسه بالكلية، فلعله إن كان ذا حظ من الدراية في الشريعة يسعى في ذلك بنقد الأسانيد على ما لا يشتغل به أئمة التفسير أصلًا ولا يحتاجون إليه، بل وبما لم يكن منه هو نفسه من هذه الرواية من روايات ابن عباس رضي الله عنهما

التي قد تبدو أَلْيَقَ وأوفق لما يريد، فإن لم يجد سبيلًا إلى تضعيفه، فَسَتَرَاهُ يصرح بأن ابن عباس رضي الله عنهما قد أخطأ التصور، وأنه كان مرهونًا في ذلك بحدود ما كان متوفرًا لديه من العلم! كل هذا حتى لا يقع في مخالفة نظرية الانفجار الكبير أو غيرها من نظريات العلم الطبيعي في هذا الشأن ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فواقع الأمر أن العلم الطبيعي أصبح عند الإعجازيين- هداهم الله -من غير أن يشعروا- هو العلم، ولا علم يعلو عليه، تمامًا كما هو عند خصومهم من الماديين الملاحدة، ذلك أنك ترى نظريات القوم تصبح في النهاية! هي المعيار المعرفي الراسخ والركن العلمي المتين الذي عليه يقبل إخواننا أو يردون ما جاءنا من آثار أئمة العلم بكتاب الله في تلك المسألة ونحوها، على قلة دِرَايَتِهم بأصول فلسفة العلم الطبيعي ومراتب النظريات العلمية الطبيعية في القوة والضعف، وإلى الله المشتكى. والأمر ليس كذلك: فليس هذا ما تنص عليه نظرية الانفجار كما هو معلوم، فهي تنص على أن مادة الكون لم تكن قد تكونت أصلًا، وإنما كانت الطاقة مضغوطة كلها مركزة تركزًا كبيرًا في نقطة صغيرة للغاية عند درجة عظيمة من الضغط والحرارة! فلم يكن في لحظة الانفجار شيئان متلاصقان يصح أن يقال لهما ففتقناهما وهذا واضح! ولكن قد يُقَالُ ها هنا:

إنه يجوز في اللغة أن يُطْلَقَ الشيءُ وَيُراد متعلقه على سبيل الكناية، على اعتبار أن ذلك الحدث الأول كان وقوعه سببًا في انفصال المادة إلى ما تركبت منه كل من الأرض والسموات، ونقول: إن الإشكال لا يزال قائمًا في تصور معنى الفتق نفسه على هذا القول الذي يختارونه في تأويل الآية، فإنه بعيد عن صورة هذا الحدث عند أصحاب النظرية. فإن قالوا: إن فيه إشارة إلى ما يعتقده الطبيعيون من انفصال الأرض عن الشمس كَكُتْلَةٍ ملتهبة، أي في مرحلة تكون المجموعة الشمسية نفسها، قلنا: فما وجه إصراركم على ربط الآية بنظرية الانفجار الكبير لا بهذه المسألة تحديدًا؟ وجه ذلك أن الآية لم تتكلم عن الشمس والأرض، وإنما عن السموات والأرض، فاستحسنوا القول بجعلها الانفجارالكبير الذي تكونت فيه السموات والأرض كلها! ووجهه كذلك عندهم أنه قد ورد من التأويلات ما يجعل مراد الآية فتق السماء الواحدة إلى سبع، والأرض الواحدة إلى سبع، وهو ما قد يوافق – إجمالًا – التصور القائل بأن الكون بدأ من شيء مضغوط قد بُوْعِدَ بين أجزائه لِتتكونَ منه السموات والأرض.

قال ابن كثير: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين، وهكذا قال مجاهد،

وزاد: ولم تكن السماء والأرض مُتَماسَّتَيْنِ. وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه.. ولكن تظل المفارقة المعنوية الواضحة بين الفتق والانفجار عثرة لا يسعهم التغلب عليها. وواقع الأمر أنَّ ابن عباس الذي تَعَلَّقُوا بروايته قد نقل عنه القول الأول كذلك. يقول ابن كثير: حدثنا حاتم عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلًا أتاه يسأله عن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلًا فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أُوتِيَ في القرآن علمًا، صدق هكذا كانت، قال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أُوتِيَ في القرآن علمًا.. ثم حتى على التسليم بصحة التصور الذي تقول به النظرية

وموافقته لمجموع ما جاء به النص في أخبار خلق السموات والأرض، فبأي وجه يكون ثبوت النظرية في نفسه مرجحًا لِقَوْلٍ من الأقوال الثلاثة دون غيره في تأويل هذه الآية؟ هذه هي الإشكالية الأصولية. وما وجه استناد الإعجازيين على النظرية وحدها في اختيار القول الثاني وإدماجهم القول الثالث به كما يبدو، وإهمال القول الأول؟ نحن نفهم أن يَتَطَرَّقَ لإثبات هذه الموافقة -على سبيل الاستطراد أو على سبيل إثبات صدق النبوة- مَن سبق أن ترجح لديه القول الثاني تحقيقًا من مجموع ما يعتبر بمثله في ذلك من مرجحات، أما أن يقف الناظر بين الأقوال موقف حياد، ثم يجعل من ظهور النظرية وثبوتها لديه مرجحًا للقول الثاني يثبت أن هذا هو مراد الله من كلامه، فهذا ما لا يظهر في العقل ولا في النظر، فنحن قد نسلم بصحة الانفجار الكبير بوصفه أول حدث في خلق الكون، ومع ذلك يترجح لدينا القول الأول، وهو قول الجمهور، وهو الأرجح في تأويل الآية! فلا وجه في أصول التفسير ولا في أصول العقل نفسه لأن ينتقيَ المعاصرون من بين أقوال المفسرين ما هو أقرب لِتصور الانفجار الكبير، لمجرد أنه أقرب لتصور الانفجار الكبير! والذي يترجَّح لنا في الحقيقة هو قول الجمهور في

تأويل الآية، وهو القول الأول: أن السموات كانت صماء لا تمطر ففتقها الله وأنزل منها المطر، وأن الأرض كانت صماء لا تنبت ففتقها الله وأنبت منها الزرع، والله أعلم بِمُرَادِهِ.

وأظهر دليل لدينا في ترجيح هذا القول: أن النصف الثاني من الآية يتناول خلق الحياة على الأرض من الماء، حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فناسب أن يكون القسم الأول منها في فتق السماء لإنزال الماء وفتق الأرض لإنبات الزرع. فهل هذا الدليل ونحوه يلزمنا الزوال عنه من مجرد قبول نظرية الانفجار الكبير؟ لا وجه لذلك البتة. أما المتعلّق الثاني عندهم: فهو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] قالوا: إِنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يوافق ما ذهب إليه الفلكيون اليوم من اعتقادهم أن الكون ماض في التوسع، وأن المجرات تتباعد بِاطِّرَادٍ. وفي الآية خمسة أقوال، أَوْجَزَهَا ابنُ الجوزي في زاد المسير:

أحدها: لموسعون الرزق بالمطر؛ قاله الحسن.

والثاني: لموسعون السماء؛ قاله ابن زيد.

والثالث: لقادرون، قاله ابن قتيبة.

والرابع: لموسعون ما بين السماء والأرض؛ قاله الزجاج.

والخامس: لذو سعة لا يضيق عما يريد؛ حكاه الماوردي.

فذهب هؤلاء إلى انتقاء القول الثاني وترجيح وجهه اللغوي لظهور الموافقة كما صَنَعُوا بآية الأنبياء.

فلماذا لا يترجح القول بأن ﴿لَمُوسِعُونَ﴾: نوسع الرزق في السماء والأرض على العباد كما نريد، قالوا: على هذه الصياغة تقتضي أن يكون المراد أن التوسعةَ واقعةٌ الآن بالفعل، وأن تكون السماء ماضية في الاتساع تحقيقًا. وهذا ليس بلازم، وفي القرآن نفسه ما يثبت عدم لزومه. فالموسع وصف ذات يصح في اللغة أن يطلق على الكريم ذي السعة، من غير أن يلزم أن يكون متلبسا بالتوسعة حال وصفه بها. وهذا هو الأقرب إلى ذهن السامع في هذا المقام، والأوفق لأسلوب القرآن في ختم بعض الآيات بصفات الذات اللائقة بالمعنى المثبت فيها.

فالسؤال الآن: كيف يكون ثبوت استمرار السماء الدنيا (الكون المنظور) في التوسع والتمدد، دليلًا على أن الراجح من هذه الأقوال جميعًا إنما هو القول الثاني الذي تظهر فيه موافقة هذا المعنى؟ نقول: إنَّ حدث البناء والتكوين والخلق قد تم وانتهى في

نصوصنا بنهاية واضحة، يوم أن استوى الرب -جل وعلا- فوق العرش، بعد أن قضى في كل سماء أمرها. فلا يصح أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حمولة تصور "الفلكيين" لكون السموات ماضية في مزيد من الاتساع بداية من حدث النشأة الأولى وإلى الآن. والكلام في الآية إنما جاء في سياق الإخبار عن حدث البناء الأول، ليبين أن ذلك البناء كان بقوة تليق بالموسع ذي القدرة سبحانه. ولا يلزم من هذا أننا ننفي ما ذهب إليه "هابل" ووافقه عليه عامة الفلكيين المعاصرين من كون الأجرام السماوية البعيدة ماضية في تباعد مطرد، استنتجوه باعتباره أسهل التفسيرات المتاحة حاليا وليس عندنا ما يمنع من أن يكون من جملة ما قضى الله من أمر في تلك الأجرام المنظورة لنا في السماء الدنيا. ولكن القول بِاطِّراد هذا الاتساع في الماضي وصولًا إلى حدث الخلق الأول، واطراده في المكان وصولًا إلى حافة الكون التي نؤمن بأنها حق ثابت على خلاف كثير من الفلكيين، هذا ما لا نقبله. هذه السماء الدنيا لا تتصور عقولنا سعتها ولا تتصور كيف هي حقيقة حدها الذي يفصلها منها إلا الشيء اليسير، فعلى أي شيء حمل لفظ القرآن ما لا يحتمله، ثم يقال إن هذا من أوجه الإعجاز ودلائل صدق النبوة؟

خلاصة الأمر في نظرية الانفجارالكبير:

ترتَّب على ما تقدم بيانه في المبحث السابق بقسميه، أن نظرية الانفجار الكبير لا تقوم على أساس عقلي صحيح. فهي تقوم على دعوى إمكان الوصول لكيفيات وتفاصيل حدث النشأة الأولى للكون – الذي هو غيب مطلق بالنسبة لنا بضرورة العقل – من تتبع قرائن ظاهرة تدل بزعمهم على ذلك الحدث دلالة الشبيه على شبيهه، والنظير على نظيره، وهذا قياس باطل؛ لامتناع أن يكون حدث النشأة الأولى بجميع تفاصيله خاضعًا للقانون الذي كان سببًا في إنشائه بالأساس، فلا قياس له في محسوسنا، ومن ثم؛ فلا يجوز في العقل أن يوصل إلى معرفة وقائعه من طريق أَقْيِسَةِ الاستقراء الحسي التي يقال لها الطريقة العلمية الطبيعية، ونقول: ما مِن شك في أن نظرية الانفجار الكبير قد وضعت كثيرًا من الملاحدة في حرج، فعلى التسليم تَنَزُّلًا بصحة المسلك الاستدلالي الذي أوصل إلى القول بجعلها منشأ السموات والأرض، فإنها تبدو للوهلة الأولى وكأنها تحسم النزاع الفلسفي في مسألة حدوث العالم، وتسحب البساط مِن تحت من يزعم أن الكون أزليٌّ وأنه هو الوجود المطلق وليس في الوجود سواه.

ولكن مَن أمعن النظر وَدَقَّقَ وتَفَحَّص، يجد أن الأمر ليس

كذلك في الحقيقة. ذلك أن الذي يريد محاججة الملاحدة بهذه النظرية ولو على سبيل التنزل، فإنه مضطر كما رأينا للتسليم بأنها لم تكن بداية الكون فحسب، ولكن كانت بداية الزمان والمكان كذلك، لأنَّه لو قال: إنها بداية الكون وَحْدَه وليست بداية مطلق الزمان والمكان، لانفتحَ البابُ لاحتمالاتٍ كثيرة، على رأسها إمكان اعتبار الحدث مِن قبيل الحوادث الكبرى التي جرت على جسم موجود مسبقًا في فراغ مسبق له امتداد زماني إلى الماضي السحيق (وهذا التصور يرفضه عامة النسبانيين بمقتضى نموذج مينكوفسكي للزمكان، ولا حجة عند مَن يقبل بجعل الانفجار الكبير بداية للكون المنظور، ويرفض – في نفس الوقت – أن يكون بداية للمتصل الزمكاني النسباني، إذ لم يوضع ذلك المتصل الرياضي إلا لدراسة أحداث هذا الكون المنظور بالأساس! ولكن القبول بكون الانفجار المزعوم بداية لكل من الزمان والمكان كذلك، يقتضي أحد أمرين، كلاهما باطل: إما التسليم بصحة التصور الأنطولوجي الشائع عند الفيزيائيين القائل بأن الزمان والمكان أشياء حقيقية موجودة في الواقع وليست فقط تصورات ذهنية لعلاقة الأشياء أو الأحداث بعضها ببعض وهذا باطل محض، وإما إبطال وجود الخالق أصلا، والتسليم بأنه لم يكن قبل الانفجار إلا العدم المحض! فإن قيل: إنَّنا يمكننا أن نقبل بجعل الانفجار الكبير

بداية للكون دون التسليم بتصور النسبانيين في أن مطلق الزمان يبدأ عنده، على اعتبار أن المقصود بالزمان هو كل ما تُقَاسُ به الأحداثُ بالنسبة إلى بعضها البعض، وليس مقصورًا على ذلك البعد الهندسي في نموذج الزمكان الرياضي، قلنا: إن هذا ضربٌ من التناقض في الحقيقة؛ لأن مَن يقبل بالمنطق القياسي الذي اتبعه المستَدِلُّون بأدلة الانفجار الكبير للوصول إلى إثبات جعله نقطة منشأ وبداية هذا الكون، فلا حجة له في رفض المنطق القياسي نفسه الذي به قيل إن الزمان كله لم يبدأ إلا عند تلك النقطة! ذلك أن منطق الانفجار الكبير في القياس يقوم على اعتبار أن ما نراه الآن من أحداث الكون المنظور، مطرد في جميع الكون، ما نراه منه وما لا نراه، وإلا ما أجازوا القول بأن ذلك الحدث هو بداية الكون كله! وهذا المنطق نحن نرفضه جملة وتفصيلًا، لأننا ندري من خبر الوحي أنَّ هذا الذي نراه ليس إلا شطرًا من السماء الدنيا وحدها، التي هي حلقة في فَلَاةِ السماء التي تليها، في طبقات سبع تنفصل كل منها عن التي تليها بفواصل لا يعلمها إلا خالقها[1]. دع عنك أن هذا الترتيب الطبقي لا يمكن للقائل به أن يقبل هذا أو ما يقاس عليه كما بينا.

---

(١) آلة الموحدين.

عقيدة التطويريين

(أو القائلين بالتطور الموجه)

تنطلق تلك الطائفة الجديدة في مسعاها النكِد هذا مستندة إلى تأويل بدعي لقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] . فهم يعتقدون أن الآية تأمرهم بالتنقيب في الحفريات للبحث في الكيفية التي بها جرت أحداث الخلق الرباني للدواب وسائر المخلوقات الحية على الأرض، حتى يصلوا بذلك إلى نظرية "علمية" بهذا الشأن. هذا التأويل الهزلي تَعَلَّق به الدكتور "عمرو شريف" وذكره في كتابه الموسوم "كيف بدأ الخلق" وكأنه من مسلمات المسلمين، وكأن أحدًا من أهل العلم بالشريعة والقرآن لن يُجادَله فيه وفي المصدر الذي جاء به منه! ولا شك أن مَن يجترئ على إحداث تأويل كهذا، وهو يعلم أنه لا قائل به من المسلمين قبله، لا بد وأن يكون ممن لا يقوم في نفوسهم أي وزن للإجماع أصلًا، ولا قيمة عندهم لفهم الأولين، ما لم يخدم ذلك الفهم غايتهم ويأتي على مزاجهم، وهذا من الأصول الاعتزالية "العقلانية" التي تتسم بها تلك الطائفة إجمالًا.

والقول في تأويل آية العنكبوت هو كما قال أئمة صنعة التفسير رحمهم الله تعالى، يقول الإمام الطبري رحمه الله: "وَقَوْلُه: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يَقُول تَعَالَى ذِكْره لِمُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّد لِلْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ بَعْد الْمَمَات، الْجَاحِدِينَ الثَّوَاب وَالْعِقَاب: سِيرُوا فِي الْأَرْض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الله الْأَشْيَاء وَكَيْفَ أَنْشَأَهَا وَأَحْدَثَهَا؛ وَكَمَا أَوْجَدَهَا وَأَحْدَثَهَا ابْتِدَاء، فَلَمْ يَتَعَذَّر عَلَيْهِ إِحْدَاثهَا مُبْدِئًا، فَكَذَلِكَ لَا يَتَعَذَّر عَلَيْهِ إِنْشَاؤُهَا مُعِيدًا "ثُمَّ الله يُنْشِئ النَّشْأَة الْآخِرَة" يَقُول: ثُمَّ الله يُبْدِئ تِلْكَ الْبَدْأَة الْآخِرَة بَعْد الْفَنَاء. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْل التَّأْوِيل. "اهـ.

أي: سيروا في الأرض فانظروا يا عقلاء كيف أن الله قد أنشأ الخلق الأول وبدأه تحقيقًا، بدليل هذا الخلق الذي تَرَوْنَهُ ماثلًا أمامكم في الأرض حيثما ذهبتم، وهو معنى واضح يخاطب به العوام والخواص في كل زمان ومكان، ويخاطب به أهل كل ثقافة وحضارة على اختلاف مقدار ما لديهم من العلوم والمعارف، ولا يُشترط فيه علم مخصوص (كعلم الأركيولوجيا والباليونتولوجي مثلًا!!)، اللهم إلا فهم اللسان العربي الذي كان هؤلاء المبتدعة مِن أَجْهَلِ الناس به! وهذا المعنى الواضح الصريح يعضده تأويل الآية

السابقة لهذه مباشرة، حيث يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩]، فهي استفهام خبري غرضه إثبات أنهم رأوا بالفعل (أعني المخاطبين بهذا النص يوم نزوله عليهم، وكل مخاطب به إلى يوم الساعة) ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾، فسهل عليهم أن يقبلوا أنه بعد ذلك ﴿ يُعِيدُهُ ﴾ لأن مثله على الله يسير. يقول ابن جرير رحمه الله: "يَقُول تَعَالَى ذِكْره: أَوَلَمْ يَروا كَيْفَ يَسْتَأْنِف الله خَلْق الْأَشْيَاء طِفْلًا صَغِيرًا، ثُمَّ غُلَامًا يَافِعًا، ثُمَّ رَجُلًا مُجْتَمِعًا، ثُمَّ كَهْلًا. يُقَال مِنْهُ: أَبْدَأَ وَأَعَادَ، وَبَدَأَ وَعَادَ، لُغَتَانِ بِمَعْنًى وَاحِد. وَقَوْله: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يَقُول: ثُمَّ هُوَ يُعِيدهُ مِنْ بَعْد فَنَائِهِ وَبِلَاهُ، كَمَا بَدَأَهُ أَوَّل مَرَّة خَلْقًا جَدِيدًا، لَا يَتَعَذَّر عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْل التَّأْوِيل." اهـ. فهذه أشياء يَرَوْنَ خلقها أمام أعينهم يقع كل يوم، يرون بالفعل كيف أن الله يبدؤه مرارًا وتكرارا ولا يصعب عليه سبحانه، فتقوم بذلك حجة الآية عليهم في أن إعادته من بعد موته خلقًا آخر في يوم الحشر لا تَصْعُب ولا تتعذر على مَن سهُل عليه ذلك الخلق الأول الذي يرونه بأعينهم.

هذا الفهم أجمع المسلمون عليه مِن يوم أن نزل القرآن وإلى

يوم الناس هذا، إلى أن خرج هؤلاء ببدعتهم تلك! فنبذوا كلام أئمة التفسير وأهل التأويل خلف ظهورهم، واخترعوا تأويلًا جديدًا على المزاج والهوى، وقالوا: إن الله يأمرنا في الآية بأن نمشي في الأرض لِننظر كيف بدأ الخلق، مع أنه يحاججهم في الآية السابقة عليها مباشرة بأنهم قد رأوا بالفعل كيف ﴿يُبْدِئُ﴾ الخلق سبحانه، وليس كيف "بدأ" الخلق في أول الزمان كما فهموا، فإن كانوا من عجمتهم قد اشتبه عليهم لفظة "بدأ" هذا الاشتباه، فما بالهم بلفظة ﴿يُبْدِئُ﴾ (المضارعة) في الآية قبلها؟ قالوا فلما مشينا ونظرنا، وجدنا نظرية تقول لنا إنه بدأ الخلق من خلية واحدة، ثم أخذ يُطَوِّر عليها ويزيدها تعقيدًا بالطفرات، فقبلنا تلك النظرية، وصرنا بذلك أول مَن عمل بأمر تلك الآية في تاريخ الأمة! فإنا لله وإنا إليه راجعون. مع أن العقل والبداهة تقتضي أن يكون هذا الذي أمر الله الناسَ بالنظر فيه، شيئًا يسعهم أن يروه حتى تقوم به حجة الآيات عليهم ويتحقق المقصود! فكيف يعقل إذن أن يكون حقيقة هذا الأمر من الله أن: انتظروا عباد الله حتى يأتيكم مَن يمشي في الأرض "ليكتشف" كيف نشأت المخلوقات في أحداث دحي الأرض وبث الدواب فيها، فيتحصل لديكم أن البعث والنشور

سيكون ارتقاءً داروينيًا كما كانت هذه الأحداث "تطويرًا"؟ ما هذا الهراء؟ إنه هراء أهل البدع والأهواء، عافانا الله وإياكم والمسلمين.

وتأسيسًا على هذا التأويل الفاسد المضحك لآية العنكبوت، اعتقدت تلك الطائفة مشروعية الجمع بين الاعتقاد بالخالق وصحة النص القرآني إجمالًا، وبين التسليم بصحة نظرية داروين (كلها أو بعضها)، وذلك من خلال الاستناد إلى المفهوم الأول للعشواء المنظمة الذي سميناه "بصانع الساعات الأعمى"، مع الاحتراز بِادِّعاء أن ذلك "العمى" والنقص ليس لازمًا من مجرد قبول النموذج الدارويني التطوري، وإنما تجري عملية التطور هذه تبعًا للإرادة الإلهية، فيقال لها إذن "التطور الموجه" تارة، و"التطوير" تارة أخرى، على تفاوت في تصورات من وقفت على كلامهم من أصحاب تلك العقيدة، بين مذهبين كُليين يتخبطون تخبطًا واضحًا في الاختيار من بينهما:

١- مذهب مَنْ يَرَوْنَ أن الله قد خلق الكون والسماوات والأرض ثم أودع في الأرض سائر أسباب تكوُّن الخلية الأولى (التي هي السلف الأول لجميع الكائنات عند داروين) ثم "تركها" لتخضع "للنظام الطبيعي" الذي تصوره داروين (الذي حقيقته: عشوائية التطفر وهلاك الأنواع المتخلفة عن التكيف.. الخ)، من

غير أن "يتدخل" في سيرها، مع علمه المسبق بنتائج المسيرة التطورية التي ستجري تحت ذلك "النظام". وهؤلاء في الحقيقة "دراونة" متمحضون في الداروينية كَنُظَرَائِهم من دراونة أهل الكتاب سواء بسواء، وإنما يزيدون في اعتقادهم في مسألة "النشأة" الأولى على الدراونة الملحدين بأن أضافوا خالقًا يُجاب به عن السؤال: "إذا كانت الكائنات كلها قد تطورت بحسب نظرية داروين من أصل واحد، فَمِنْ أين جاء هذا الأصل الأول؟". فقالوا: جاء مِن الخالق الذي سَبَّبَ له أسبابه، ثم تركه لِيجريَ وحده من غير أن "يتدخل" فيه، مع كونه يعلم مستقبله ومآله، لأنه "بكل شيء عليم"!

٢- مذهب مَنْ يرون أن الله تعالى قد خلق تلك العملية كلها بجميع تفاصيلها (وليس أسبابها الأولى وحسب)، فكل ما ينسبه دارون للعشوائية، فهو عندهم فعل رباني تابع لإرادة مُسبقة، يتسلسل في جملة من الأفعال المتتابعة حتى تجريَ عملية "التطور" هذه في إطار موجه يجعلها تبدو على هذا النحو الذي يعتقدون بأن العلم قد أَثْبَتَهُ. وإنما كان ظاهره فيما يبدو لعلماء الأحياء أنه عشوائي وليس كذلك. فهم في الحقيقة ينفون عن "الطفرة

العشوائية" صفة العشوائية (ومن ثم اسم الطفرة نفسه)، وينفون عن الانتخاب "الطبيعي" طبيعيته (على المفهوم الداروينى) إذ يجعلون ظهور الطفرة متى ظهرت، ووقوع الانتخاب متى وقع، أفعالًا إلهية كلها. فيعتقدون بذلك أن الله قد قصد وأراد أن يجري الخلق على الأرض في سيناريو "تطويري" مُوَجَّه ظَاهِرُهُ العشوائية الداروينية! وكما سنبين فإن كلا المذهبين ضلالة ولا كبير فرق بينهما، إذ ليس بين الحق والباطل إلا الباطل، وإنما يتفاوت القولان في مقدار قربهما وبعدهما عن الحق.

يجب أن يعلم كُلُّ مسلم ابتداءً أن مجردَ القول بأن الخلق كان "تطورًا" أو "تطويرًا" هذا سَبٌّ وَتَنَقُّصٌ لحكمة الله تعالى وعلمه. ذلك أن خالقًا كان لا يخلق إلا خلقًا ناقصًا متخلفًا عن لوازم البقاء في الأرض والاستقرار النوعي، ثم "طور" ذلك الخلق تدريجيًّا و"حَسَّنَه" بما يناسب، حتى يصلح للبقاء، كما تقول نظرية داروين، هذا خالق جاهل عابث، يلعب بلعبة التجربة والخطأ "Try and Error" ولا يدري هل يصلح ذلك الخلق ليبقى أم لا يصلح؟ فإذا ما هلك و أوشك أن ينقرض، خلق فيه "طفرة" جديدة لعلها تُنْقِذُه، فإما تنقذه فيبقى وإما لا تكفيه فيهلك وتهلك هي معه، سبحان الله وتعالى علوًّا كبيرًا! لهذا كان لازم القول بالتطوير في

الخلق (على أي وجه كان ذلك التطوير المزعوم) ناقضًا لأصل العقيدة.

فأما المذهب الأول (أ) لهؤلاء "التطويريين"، فالقائلون به نُفَاةٌ لمطلق صفة خلق الحياة بِشَتَّى صورها عن الله ﷻ فيما عدا خلق تلك الخلية الأولى الداروينية وحدها. فهم يتأولون خلق الله تعالى للبشر والدواب وسائر المخلوقات الحية على ظهر الأرض بأنه كان عملية داروينية محضة، لم يزد فعل الله فيها على أن أطلقها في بدايتها، ثم إذا بها تمضي في تطور مطرد وفقًا "للقانون الطبيعي" بحسب اعتقادهم من غير "تدخل" منه. وهذا تكذيبٌ لصريح القرآن، وجحدٌ لِصِفَةِ الخلق عن الرحمن، وقصر الفعل الإلهي في خلق الخلية الأولى وحدها (أو أسباب نشوئها) ثم ترك الأمر بعد ذلك للارتقاء الدارويني يأخذ مجراه! فمهما زعم هؤلاء أنهم يعتمدون أن الله تعالى هو خالق كل شيء، فَحَقِيقَةُ اعتقادهم تكذبهم! فهو عندهم في واقع الأمر خلق نظامًا طبيعيًا (هو الأرض وما فيها وما يحكمها من قوانين فيزيقية) ثم وجه بعض الأسباب لِتنشأ بذلك خلية أولى، ثم تركها لِتتحرك قصة داروين المزعومة في مجراها المزعوم بتمامه وكماله، فأي "خلق" للدواب والحياة هذا الذي ينسبه هؤلاء إلى الله تعالى؟ هذا وهم لا حقيقة له! وسابقية

العلم الرباني التي يزعمونها له والحالة هذه، وهم وباطل أيضًا، إذ "العشواء" وصف لا يوصف به إلا ما لا يمكن التنبؤ به. فكيف يكون الأمر معلومًا للخالق مسبقًا وهو في نفس الوقت "عشوائي"؟ ما وجه وصفه بالعشوائية إذن؟ هذا تناقض واضح.

وأما المذهب الثاني (ب) فحقيقته النسف التام لِرُكْنَي نظرية داروين اللذين قام عليهما القول بالتطور والأصل الموحد نفسه، مع التصريح -في نفس الوقت- بقبول تلك القصة التطورية البائسة التي جاءت بها النظرية لظهور أنواع الحياة على الأرض (تأسيسًا على هذين الركنين)، كعقيدة إسلامية في "الكيفية التي خلق الله بها الخلق" على أنه خلق "متدرج"! فهو كسابقه (المذهب أ) يترك صاحبه عاريًا في الصحراء، فلا يقوم اعتقاده في الخلق على نقل صريح ولا على عقل صحيح، إذ يظن صاحبه ابتداءً أن "كيفية أحداث الخلق الأول" يمكن الوقوف عليها من طريق العلم الطبيعي، فإذا ما تناول نظرية الطبيعيين في ذلك، وأراد أن يجردَها مِن أصلها الإلحادي (الذي هو بعينه أصلها "الطبيعي" عندهم) لم يبق له منها إلا الدعوى المجردة، ولم يخرج من ذلك إلا بالتنقُّصِ مِن صفات خالقه، وهو يحسب أنه يتبع العلم الصحيح! فمن غير إثبات آلية الطفرة العشوائية على مفهومها الدارويني، وإثبات آلية

الانتخاب الطبيعي على مفهومه الداروينى -فَلَيْسَ لشيء من تلك المشاهدات المادية التي يتعلق بها أصحاب التطور (كالحفريات وغيرها) أي قيمة إذا ما جُمع بعضها إلى بعض، ولا حقيقة إذن أصلًا لشيء اسمه "التطور" أو "الارتقاء"، ولا يبقى لذلك المسكين صاحب تلك العقيدة إلا اتهام الرب جل وعلا بخلق مخلوقات ناقصة مَعِيبة كلها، يكون الأصل فيها أن تهلك كلها من سوء الصنع والخلقة، حتى يبعث فيها بعد أزمان طويلة، "طفرات" مبعثرة هنا وهناك لزيادة عضو أو إضافة نظام حيوي كان ناقصًا مِن قبل، فيبقى منها ما "يرتقي" بما فيه الكفاية! وقد كان بعضهم يجتهد في محاولة تخليص وتصفية فكرة التطور من تلك الصورة الداروينية المنحطَّة، بزعمه أن الكائنات الانتقالية التي مِن شأنها أن تؤكد صحة التطور إنْ اكتُشِفَت، ربما لم تكن من الوفرة والكثرة بحيث تبقى لها حفريات أصلًا، ومِن ثمّ؛ فلا قيمة للسجل الأحفوري في إثبات التطور، لأن هذا التطور ربما كان في حقيقته تطورًا سريعًا عبر أجيال قليلة بنقلات سريعة وحادة، لا من خلال أنواع انتقالية مُشَوَّهَة كما يقول الدراونة، فبالله ما هذا الإصرار على التمسك بتلك النحلة الباطلة وذاك التصور الفاسد للكيفية التي خلق بها الله أنواع المخلوقات (التي لا يمكن إلا أن تكون كيفية

فريدة كما قدمنا، فلا يمكن الوصول لمعرفتها بالقياس على ما نـراه في الكائنات من أحداث كالمسخ أو التغير الجينـي أو التكيـف[١] أو غير ذلك كما قاس داروين وَمُوَافِقُوه مِن أهل الملـل)؟ وقـد ضرب أحد هؤلاء مثالًا مضحكًا مبكيا! حيث قال ما معناه: إن مَنْ يلعب بلعبة النرد سيعجز عن التنبؤ بالقيمـة التـي سيخرج عليهـا ذلـك النرد في كل رمية لأنه مخلوق قاصر، ولكن هَبْ أنه قام بضبط سائر الأسباب ضبطًا محكمًا حتى لا تخرج قيمة النرد في كل مـرة إلا عـلى حسب إرادته، ألا يكون ذلك مثـالًا جيـدًا للتوفيـق بـين "التطـور العشوائي" من جهة والخلق والتوجيه الإلهي من الجهـة الأخـرى؟ فسبحان الله! كيف لا يعقل هذا أنه بذلك يتكلم عن خـالق عابـث ناقص يضع نظامًا، الأَصْلُ فيه الفوضى والعـشواء المتجـذرة (بـلا

---

(١) التكيّف (بالإنجليزية: Adaptation) في علـم الأحيـاء هـو عمليـة تطوريـة تصبح فيها الكائنـات الحيـة متكيفـة أكثر للعيش والتكـاثر في بيئتهـا. ومـصطلح التكيف يشير أيضًا لخلة ذات دور وظيفي في تاريخ حياة الكـائن الحـي تـم الحفـاظ عليها وتطويرها بواسطة الاصطفاء الطبيعي. التكيفات تزيد من صلاحية الكائنات الحية وفرص بقائها. الكائنات الحية تواجـه أثنـاء نموهـا وتطورهـا تحديات بيئيـة متتابعة، وهي مزودة بلدونة تكيفية، بحيث ينمـو نمطهـا الظـاهري بتجـاوب مـع الظروف المفروضة. قاعدة التفاعل النهائية لأي خلة هي مهمة مـن أجـل تـصحيح التكيف، إذ أنها تتحمل نوعًا من الضمان الحيوي أو الرجوعية لبيئات مختلفة.

سببية ولا تعليل = لا خلق)، إلا فيما يسببه هو من الأسباب التي توجهه بإرادته؟ كيف لا يعقل أنه لا يغني عنه شيء أن زعم أنها عشواء موجهة بحيث تظهر للناظر وكأنها عشواء، مع أنها في الحقيقة نظام محكم متين؟ ألم يسمع قولَ الملك جل وعلا:
﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] ألم يسمع قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣] .

فكيف يستقيم لمسلم يؤمن بتمام حكمة الملك وقدرته وتقديره التام لكل شيء خلقه -أن يقول: إن مِن أحداث الخلق ما كان ظاهره "العشواء" فيما يبدو للناس، مع كوننا نجزم بأنه ليس كذلك؟؟ أي ظاهر هذا يا مَن صَحَّ فيه قول الملك جل في علاه: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٤] ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] ، والكلام الذي قلناه فيمن يعتقد "التطور"، وارد على مَن يعتقد "التدرج" أيضًا، لأن السؤال هنا يكون: في أي شيء تعتقد أن

خلق الله قد "تدرج"؟ في الإحكام والضبط الذي يؤهل النوع لأن يبقى؟ هذا سَبٌّ لله تعالى، وهو عَيْنُ القول "بالتطور" ولا فرق! ففي أي شيء إذن وقع ذلك "التدرج"؟ في الحسن و"جمال الخلقة" كما في قوله تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ؟ هذا لا دليل عليه ولا علاقة له بما يستند إليه التطوريون من الأدلة، وإنما تَنُصُّ الآيةُ على أن الله خلق آدم في أحسن صورة من صور المخلوقات التي خلقها وقومها على الأرض سبحانه، وعند هذا الحد نقف ولا نزيد إلا بدليل. ولكن مهما تكلم الإنسان في "تدرج مزعوم" في الخلق في هذه الخصلة أو تلك، فقد جاء بما لا دليل عليه عند أحد من البشر إلا ما يتعلق به الدراونة من شبهات، فيقال فيه كما يقال فيهم!

ومما يؤسف له غاية الأسف حقيقة، فتوى في غاية العجب، أسأل الله الهداية لمن أَفْتَى بها، يقول صاحبها في الجواب عن سؤال حول أصل الإنسان وموقفنا من نظرية داروين في هذا الشأن: "ورد أن الله خلق الإنسان نوعًا مستقلا لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر، وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الذي يدخل تحت قدرة الله تعالى، (و) لا يوجد في النصوص أن الله خلق الإنسان الأول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل على

انفراد، فسبيل ذلك التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين حتى يقوم الدليل القاطع عليه فنعتقده ما دام الذي فعل ذلك كله هو الله تعالى..، ولا حرج في اعتقادها ما دام الله هو الذي خلقها ووجهها، فهي لا تحقق وجودها من نفسها: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ، فهو خالق المادة والنواميس" (فتاوى الأزهر ج٧ص٣٩٩ (فحاصل الفتوى- أنه يجوز أن نعتقد أن الله تعالى خلق الإنسان "بتكوين متمهل على انفراد" إذا ما قام الدليل العلمي "القاطع" على ذلك! فإن لم يكن هذا تعريضًا بمشروعية اعتقاد صحة خرافة داروين في أصل الإنسان، فهو فَتْحٌ للباب أمام ذلك الاعتقاد ولا شك، وتجويز لحصوله عند المسلمين في يوم من الأيام، والله المستعان!

مع أن لنا أن نسأل هذا المفتي، ما مرادك "بتكوين متمهل على انفراد"؟ هل هو تصور الدراونة لمخلوق يخلقه الله تعالى أبتر أعرج منقوص الأعضاء، ثم تظهر له أعضاء جديدة مع كل طفرة "عشوائية" (على مهل) حتى يصبح في يوم من الأيام نوعًا صالحًا للبقاء؟ أم أنه تكوين الإنسان من سلاسة الهومينيد (القردة العليا) قردًا بعد قرد، كما يعتقده داروين وأتباعه؟ يبدو أنها ليست الثانية

لأنهِ يقول "على انفراد"! فما معنى "تكوين متمهل" هنا إذن وكيف نَفْهَمُها في هذا السياق؟ وما معنى أنه لا يوجد في النص ما يدل على أن الله تعالى خلق الإنسان من تراب "على دفعة واحدة"؟ ما مُرَادُكَ من "دفعة واحدة" هذه؟ النص صريح – والأمة مطبقة على فهمه - في أن الله تعالى خلق آدم بيده من صلصال خلقًا كاملًا، إلا أنه سبحانه لم ينفخ فيه الروح مِن فَوْرِهِ ولكن أرجأ ذلك حينًا من الدهر لحكمة لديه سبحانه. فآدمُ قد خُلِقَ على صورته الكاملة من الصلصال "دفعة واحدة" وفي مرة واحدة، وهي عقيدة المسلم التي لا يجوز له إبدال غيرها بها! فهل تدعونا هذه الفتوى إلى البحث في الكيفية التي خلق الله بها آدم بيده في ذلك الحدث الغيبي المحض، وتجيز لنا أن يأتينا دليل (قاطع) من غير طريق الوحي يخبرنا في يوم من الأيام عما إذا كان قد خُلق آدم من الطين على هيئته وصورته الكاملة في "دفعة واحدة" أم خلقه الله على مراحل "بِتَمَهُّلٍ"، كأن يكون قد خلق رأسَه أولًا – مثلًا – ثم صدره وبطنه ثم كتفه ثم رجله.. الخ؟

ما هذا الكلام، وكيف استجازه هذا المفتي -هداه الله-؛ بل كيف يتصوره أصلًا؟ ثم ما هو "طريق النشوء" هذا الذي زعم صاحب الفتوى دخوله تحت قدرة الله كطريق للخلق والتكوين؟

إن كان لا يدري أن "النشوء" عند مَن يقولون به إنما يعني نشوء الشيء استقلالًا بلا "منشئ"، وتكونه من نفسه استقلالًا بلا مُكَوِّن، فتلك مُصيبة، وإن كان يدري فالمصيبة أعظم! نعم، الله تعالى قادر على أن يخلق مخلوقًا (نوعًا جديدًا) من مخلوق آخر، ومَن شاء أن يصفَ بعض الأنواع التي تتغير بعض خصائصها الجينية بأمر خالقها تغيرًا طفيفًا حتى تتأقلم مع البيئة الجديدة على أنها قد صارت أنواعًا أخرى جديدة، فلا بأس بأن يوصف هذا بأنه خلق من خلق، والله قادر عليه ولا إشكال، وليس هو "تطورًا" أو "تطويرًا" كما أسلفنا، وإنما هو خلق محكم لبيئة مخصوصة، يتبعه خلق آخر محكم لبيئة أخرى مناسبة له، إبداعًا من بعد إبداع، وإحكامًا من بعد إحكام (ما لم تقتض حكمة الخالق أن يحكم على نوع من الأنواع بالانقراض فلا يقضي فيه بذلك التكيف الجيني الملائم كما ذكرنا). أما أن يقال: إن الله قادر على أن يخلق من "طريق النشوء" فهذا كلام مَن لا يدري ما "النشوء" هذا أصلًا! بل إن هذه الفتوى العجيبة تفتح الباب أمام ما لا يقول به كثير من "التطوريين" أنفسهم، إذ يؤمنون بأن آدم عليه السلام قد خلق من طين خلقًا مباشرًا كما أخبر الله تعالى في النص، وأن له وضعًا استثنائيًا على هذا الاعتبار في خروجه من قاعدة التطور المزعوم، بينما يلوح

هذا المفتى بأن آدم قد خلق على مراحل وأطوار، ربما يثبت لنا في يوم من الأيام أنها كانت على نحو كذا وكذا! فنعوذ بالله من ذاك الوهن ومن تلك الهزيمة النفسية التي تزكم الأنوف! فيا هؤلاء "التطويريين" دعونا نكررها لكم لعلها تُصِيبُ من عقولكم ما هو مُسْتَقِرٌّ في نفوس سائر المسلمين: خَلْقُ الله تبارك وتعالى ليس عبثًا ولا لَعِبًا، وليس هو "محاولة" لضبط الخلق وتقديره بقدره الصحيح، بإحداث "طفرات" في البرنامج الجيني ترقى بها (أو ببعضها) تلك المخلوقات من حالتها الفوضوية البائسة التي خرجت إلى الوجود عليها (بحسب نظرية داروين)، سبحان الله وتعالى عن ذلك العجز والقصور والعبث علوًّا كبيرًا! فإذا ارتضيتم موافقة المسلمين على أن الخلق لم يكن عبثًا (وهو ما تصرحون بأنكم تعتقدونه وتؤمنون به)، ولم يكن "نشوءًا" ولا "تطفرًا" ولا "عشواء" ولا "انتخابًا للمخلوق الأصلح للبقاء من جملة كبيرة من المخلوقات الناقصة المتهالكة"، ولم يكن شيئًا من تلك المقتضيات الصريحة التي تقتضيها عقيدة الانتخاب الطبيعي والتطفر العشوائي، فبالله، ما وجه تعلقكم بأن اللهِ قد خلق الخلق "بالتطوير" أو "بتوجيه التطور" أو "بالتدخل في الوقت المناسب"، وكأنه سبحانه كان الأصل في صفته أنه متعطل عن الفعل والخلق

في هذا العالم، فلا يتسبب في شيء من أحداث "الطبيعة"، وإنما تتعلل الطبيعة بنفسها استقلالًا، إلا فيما "يتدخل" فيه الخالق بالفعل والإحداث من آن لآخر فيكون هو "فاعله"؟ أهو التعلق بالاسم فقط (التطور)، حتى لا يقال "جهلاء" متشددون رفضوا "العلم الحديث" ورموه وراء ظهورهم تمسكًا بدينهم؟ نعوذ بالله من الخذلان وأهله.

إن المتأمل في آي القرآن وصحيح السنة يجد أن خلق الله في هذا العالم وقع على صنفين كليين لا ثالث لهما:

- إحداث للمخلوق من العدم (أي من عدم ذلك المخلوق أو النوع نفسه، وليس عدم المادة التي يتكوّن منها)، وهو ما يُقال له: الخلق بغير مثال سابق، وفيه قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، وهو نَصٌّ صريحٌ في أن الله تعالى خلق جميع أنواع الدواب التي فصل في بيان بعضها، من الماء، لا من بعضها البعض ولا من أصل واحد كما يعتقده التطوريون. ويقول جل وعلا: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وتأمل قوله "أنزل". وقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، ولعله أن يكون نصًّا صريحًا كذلك في أن أنواع المخلوقات على الأرض قد خلقت "أزواجًا" (بالخلق المباشر)، وليس تدرجًا من أصل واحد. وهذا القسم من الخلق الرباني يدخل فيه خلق آدم من الطين وخلق إبليس من النار، وخلق الملائكة من النور. هذه النصوص قد توافر السلف وجميع المسلمين قرونًا طويلة على فهمها على أن خلق الله تعالى لسائر الدواب إنما كان خلقًا مباشرًا من غير مثال سابق ومن غير "سلف" تطوري أو نحو ذلك مما جاء به الدراونة.

- إحداث للمخلوق على مثال سابق، وهو ما يكون من خلق الأجنة في الأرحام، وخلق الأجيال المتتابعة من المخلوقات على الأرض بعضها من بعض، كل مخلوق بحسب ما جعل الله في نوعه من طريقة للتكاثر والتناسل، خلقًا من بعد خلق، كما في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦]، والخلق في الأرحام هو ما يقول فيه الملك جل

وعلا ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤]، والأطوار هنا يُرَادُ بها النطفة ثم العلقة ثم المضغة كما قال مَنْ يُعْتَدُّ بكلامهم في فهم كتاب الله تعالى، وهو إجماع المسلمين في فهمها الذي لم يُعرف في الأمة خِلَافُه، فَمَن أتى فيها بتأويل آخر (كقولهم: إن الارتقاء أو التطور هو المقصود بتلك الأطوار) فقد افترى على الله الكذب! وليس الخلق على مثال سابق "تطويرًا"، ولا يجوز أن يكون كذلك، إذ التطوير الذي يقصدونه معنى مذموم في ذاته كما بينًّا. ولو كان الخلق من طريق التناسل (خلقًا من بعد خلق) طريقًا لإحداث أنواع جديدة من الكائنات الحية على الأرض على غير مثال سابق، بل لو كان ذلك هو طريق الخلق الأوحد وتكوين الأنواع كلها من أصل واحد كما يعتقده الدراونة من أهل القبلة، لكان ذكره أولى من ذكر هذين الصنفين جميعًا، ولما جاز أن ينعقد إجماع المسلمين من السلف الأول وإلى يوم ظهور تلك الطائفة الجديدة بينهم على خلاف هذا التصور الدارويني لخلق الله تعالى لأنواع الكائنات الحية على الأرض، تبعًا للنص الصريح كما أسلفنا! فواقع الأمر أننا معاشر المسلمين من أهل الحديث والأثر، أهل الفرقة الناجية، لا نقيم وزنًا لما يخالف إجماع الأولين في فهم أخبار الغيب التي جاء بها النص الشرعي، ولا نرى معقولية الخروج بتأويلات جديدة لم يكن

للأولين دراية بها ولا بقريب منها لما خاطبهم به الله تعالى من نصوص الوحي المطهر! فَمَن شَذَّ عن هذه القاعدة الكبرى عندنا فليس منا ولسنا منه، وهو عندنا من أهل البدع والضلالات، والله الهادي إلى سواء السبيل! وحتى لا نقابَل باعتراضات ساقطة على هذا الإطلاق بخصوص تغير الكائنات الحية عبر الأجيال للتكيف وكذا، نقول: إنه ليس التغير الجِيني عبر أجيال الأنواع مما يعد من قبيل حدوث الأنواع الجديدة أصلًا، وإنما يدخل في باب الخلق من بعد خلق، وهو تعديل رباني على أنواع قائمة بالفعل. وليس هو من "التطور" أو "التطوير" وإنما هو تغيير في خصائص المخلوق الواحد أو النوع الواحد بما يتوافق مع تغير البيئة التي يعيش فيها، تغييرًا محسوبًا محكمًا مقدرًا على أحسن تقدير، فلا كان الكائن (النوع) من قبله ناقصًا عاجزًا، ولا صار من بعده أكثر تطورًا أو أحسن رقيًا! وإنما كان في كلا الحالين جميعًا على أحسن ما يكون لموافقة بيئته التي يعيش فيها، فانتقل من مواءمة وموافقة إلى مواءمة أخرى وموافقة أخرى، تكيفًا بعد تكيف، وتوافقًا بعد توافق، مع بقاء أصل النوع كما هو، ما لم يشأ الله له أن يهلك وينقرض، فيسبب الأسباب لذلك ﷻ، مع أسباب أخرى يغفلها أو يتغافلها الدراونة تتعلق بحفظ التوازن البيئي العام على الأرض، وحفظ سلاسل

الطعام Food Chains من الانهيار، ونحو ذلك مما نقول به؛ لأنه مقتضى حكمة حكيم عليم لا يقضي في خلقه إلا بالحق وبتقدير محكم متين. والدراونة - بالمناسبة - يتغافلون عن هذا الجانب (جانب التوازن الكلي المحفوظ في النظام الحيوي ككل) عمدًا؛ لأن لازمه هدم الأصلين الكليين لنظريتهم تلك، إذ حقيقته القول بأنه ما مِن تغير يقع في الحوض الجيني إلا وفي سائر متغيرات المنظومة الكونية للحياة على الأرض ما يستوعبه ولا يسمح بصيرورته سببًا في انهيار النظام نفسه، كما يستلزمه التصور الدارويني العشوائي الذي يعتقدون – دفعًا بالصدر - أنه ظل يجري على الأرض لملايين السنين من غير أن يتعرض لحدث عشوائي واحد يمكن أن يكون سببًا في انهياره كُلِّهِ من أوله إلى آخره! فهم يؤمنون بغياب الضابط أو المنظم أو الحاكم الخارجي، ومن غير هذا الأصل الكلي لديهم لا يكون "لآلية" داروين أي معنىً أصلًا! ولهذا قدمنا أن مَنْ رَامَ الجمعَ بين الخلق المحكم والتنظيم الخارجي من جهة، وبين آلية داروين الطبيعية من جهة أخرى، فقد ناقض نفسه أشد التناقض، وصار كالمنبتّ، لا أرضًا قَطَعَ ولا ظهرًا أَبْقَى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والكل منه براء! وقد تعلق بعض التطويريين بكلام للأئمة فيما مفاده أن أيام الخلق لا يلزم أن تكون أيامًا على مقياسنا المعروف

لليوم والليلة؛ لأن النص قد جاء بأيام لها مقاييس مختلفة كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] ، فقد يكون طول يوم الخلق هذا مئة سنة أو ألف سنة أو مليون أو أكثر، والله أعلم بحقيقة ذلك. فقال هؤلاء: إن هذا الطول لليوم الذي خلقت فيه الدواب يتفق مع ما يقوله "السجل الحفري" الدارويني من طول المسافة الزمنية الجيولوجية بين المخلوق الأقدم والأحدث بما يدعم القول بالتطور، بل عَدَّهُ بعضُ المساكين من "الإعجاز" إذ رأوا النص عندنا يسمح بقبول قصص القوم في "النشأة الأولى" على طولها الفاحش، بخلاف نصوص أهل الكتاب. ونقول: إن هذا استدلال وَاهٍ في غاية الوهاء، لأن الجواز والإمكان شيء، والتحقق والوقوع شيء آخر. فالمسلم المتجرد من فتنة دارون ونظريته، لا يميل في الترجيح في هذا الشأن (قضية طول يوم الخلق) إلا مع النص الشرعي، فإن وجده قال بِمُقْتَضَاه، وإلا سَكَتَ. أما أن يتخذ ذلك الإمكان في مقدار اليوم الذي تكلم به بعض أهل العلم دليلًا في نفسه أو قرينة على صحة مزاعم الدراونة في قصتهم "الارتقائية" الأسطورية الطويلة هذه، فهذا ما لا يقوله عاقل! وفي الختام نقول: إنه مهما وجد المسلم من حفريات ومن قرائن حسية على التقارب الجِيني أو الجزيئي أو

المورفولوجي (أو على أي وجه كان) بين صنوف الكائنات في الأرض، فإنه يرفض فكرة وضعها في مسلسل تاريخي "ارتقائي" أو "تطوري" أو "تطويري" أو "تدرجي" أو أيٍّ ما كان اسمه، لأنه يرفض الأساسَ الفلسفي الذي عليه رتب الدراونة أنواع المخلوقات، وبه تَأَوَّلوا تلك المشاهدات في الحفريات وغيرها، ولأنه يؤمن بأن الله تعالى قد خلق كل صنف من صنوف المخلوقات (كل دابة) في مكانه الصحيح وفي بيئته الصحيحة وعلى أكمل ما يقتضيه بقاء ذلك الصنف وتكاثره في الأرض، خلقًا تامًّا محكمًا من أول مرة، وهو ما يقتضيه العقل الصحيح بموجب كمال صفات الله تعالى، وما أطبق المسلمون عليه عبر القرون مِن فهم لنصوص الخلق والتكوين! فماذا بقي إذن مِن ذلك "النموذج" الذي تتمسك به تلك الطائفة إلا أن يكون وهمًا يوهمون به أنفسهم، من شدة ما في نفوسهم من افتتان بتلك النظرية الإلحادية الساقطة، حتى لا يبقى للدكتور "عمرو شريف" من متعلق في كلامه إلا تقريره بكل ثقة أن هذا ما أثبته العلم الحديث، وهو علم له أهلُه ويجب احترامهم، ويجب قبول بضاعتهم، وإرجاع الأمر فيه إليهم، إلى آخر ذاك الكلام الذي إن دَلَّ على شيء فإنما يدل على نفس منهزمة قد ارْتَضت لصاحبها تقليد الأكاديميات الكبرى فيما

اتفق أصحابها عليه وإن جاءت بما يصادم صريحَ العقل والدين، ويخالف قطعيات النص وفهمه الذي أجمع عليها المسلمون من يوم أن نزل القرآن على خاتم المرسلين![1].

التطور الموجه وخطورة القول به:

لم يقتصر تبنّي فرضية التطور الموجه على المفكرين الغربيين، وإنما تبنّاها عددٌ من المفكرين العرب المعاصرين، ورأوا فيها موقفًا راشدًا جامعًا بين جميع الشواهد العلمية. ومن أشهر أولئك: الدكتور عمرو شريف كما أشرنا آنفًا، وهو يُعَدُّ مِن أكثر مَن كتب في شرح هذه الفرضية والانتصار لها، وسيكون الحديث هنا مرتكزًا على أقواله واستدلالاته؛ لانتشارها وشيوعها في واقعنا. فقد ذكر أن المعترضين على فرضية التطور الدارويني صنفان، الأول: مَن ينكر التطور كلية ويؤمن بمفهوم الخلق الخاص لكل نوع، وهؤلاء يسمون "الخلوقيين". والآخر: مَن يقرّ بحدوث التطور وبأن الأنواع الحيوانية تشترك في أصل واحد وتطورت عنه إلى أنواعها الموجودة، لكنه ينكر أن يكون حدوث ذلك راجعًا إلى العشوائية والصدفة، وهؤلاء يسمون "مدرسة التطور الموجه". وجزم

(١) "رسالة في الرد على التطوريين" أبو الفداء بن مسعود.

الدكتور عمرو شريف بأن كل الأدلة التي يستدل بها القائلون بالخلق الخاص، لا تبطل أصل فكرة التطور، وإنما تبطل الداروينية القائمة على الصدفة والعشوائية فقط. ويرى أن حدوث الأنواع الحيوانية عن طريق التطور، حقيقة علمية ثابتة لا تقبل النقاش، وأن إنكارها يُعَدُّ مخالفًا للمنهج العلمي، حيث يقول: "وقد جعلت منها الأدلة القوية حقيقة علمية ينبني عليها علم البيولوجيا بفروعه المختلفة» . ويقول في نقده مواقف مَن خالفه مِن علماء المسلمين: «لقد وضع هؤلاء القرآن في موضع الرافض لما يتوصل إليه العلم من حقائق" . ومع أنه يوافق أتباع الداروينية في قولهم بالتطور، إلا أنه أبطلَ أكثرَ أدلتهم، ويذكر أنه "بالرغم مِن اقتناعنا بالتطور فقد فنّدنا بموضوعية ما في هذه الأدلة والرسومات الكلاسيكية مِن تجاوز وأخطاء، ووضعنا الصحيح منها في موضعه، ونكرر مرة أخرى أن معظم هذه الأدلة قد أصبحت في ذمة التاريخ، وانتقل التطور إلى ملعب البيولوجيا الجزيئية جملة وتفصيلًا" . وحين انتهى الدكتور عمرو شريف من عرض فكرة التطور الموجه، انتقل إلى بيان العلاقة بين هذه الفرضية ودلالات القرآن الكريم في خلق الإنسان، فابتدأ بالهجوم على المخالفين له، وقدح في موضوعيتهم ومنهجهم العلمي، وادَّعى بأن هناك "حاجزًا ضخمًا يقف حائلًا

بين المعترضين وبين التطور، حاجز ليس له علاقة بحقائق العلم وقوة أدلته ولا بآيات القرآن الكريم المحكمة، إنه حاجز يتمثل في إصرار الكثير على التمسك بالتفسيرات التراثية لآيات الخلق في القرآن الكريم". فهو إذن يرى أن دلالة نصوص القرآن على فرضية التطور الموجه محكمة ظاهرة، وأن مَن يخالف فيها ليست لديه حجة إلا الاعتماد على الآثار التراثية عن السلف والتمسك بها! ثم ذكر أن السلف إنما أخذوا بالخلق الخاص وفسروا القرآن بذلك؛ لِنقص علمهم بالتاريخ والبيولوجيا. ولم يقتصر في تأثيره على عواطف القراء بالقدح في موضوعية المخالفين له، وإنما استحضر تاريخ الكنيسة الأسود في العصور الوسطى وأخذ يلوح به في وجه مَن يخالفه، فقال: "إن هذا الفصل صيحة نذير.. فالليالي قد تَتَشابَه.. في العصور الوسطى عَذَّبَتِ الكنيسةُ في أوروبا العلماءَ وحرقت بعضهم؛ لأنها رفضت كلمة العلم حول كُروية الأرض ودورانها حول الشمس، وَأَصَرَّت على فرض مفاهيم أرسطو وبطليوس باعتبارها من أمور العقيدة.. وفي هذا العصر نكاد نحيا في عالمنا الإسلامي ليلة تتشابه مع ليالي البارحة، فما زال بعضُ رموز علماء الدين المسلمين ممن لهم الكلمة المسموعة، يَحْيَوْنَ على علوم العصور الوسطى وعلى فَهْمِ الأَقْدَمِين للآيات الكونية وآيات

الخلق في القرآن وأحاديث الرسول". وما ذهب إليه الدكتور عمرو شريف في موقفه مِن فرضية التطور ودلالة القرآن عليها وطريقة تعامله مع تفسير القرآن؛ غير صحيح، وهو مَبْنِيٌّ على مقدمات خاطئة وتوصيف غير دقيق لمواقف المخالفين له، ومبالغة في نعت قوة موقفه وحججه، ويتبيَّن ذلك بالأمور التالية:

الأمر الأول: ينطلق الدكتور عمرو شريف من أن فرضية التطور باتت نظرية علمية لا يقبل ثبوتها الشك أو الارتياب، وأن أمر صحتها محسوم باليقين، وجعلها الممثلة للعلم، وأنها لا تختلف عن النظريات العلمية الأخرى الثابتة، ووصف من يخالفها بأنه يخالف ما هو ثابت علميًّا. وهذا الأمر مخالف للواقع، فإن فرضية التطور لم يُحسم فيها الأمر بعد، وما زالت مثارًا للجدل والنقاش الحاد حتى يومنا هذا، وما زالت التيارات العلمية تتصارع حولها بشدة في كل محفل ونادٍ. ومع أن عددًا من المتبنِّين لها أكثر من عدد الرافضين حتى وقتنا الحاضر، إلا أن عدد الرافضين ليس قليلًا، وشأنهم ليس ضعيفًا؛ فكثير منهم من العلماء البارزين في تخصصاتهم، وهناك هيئات علمية كاملة أعلنت رفضها نظرية التطور، وقد أُنْشِئَ موقع خاص على الشبكة الإلكترونية للعلماء المعارضين لِفرضية التطور، وقد بلغ عددهم المئات، وهم مختلفون

في توجّهاتهم واختصاصاتهم العلمية، وما زالوا يقدمون من الأدلة والبراهين ما يضعف من فرضية التطور ويزيد من قوة موقفهم. والغريب حقًّا أن الدكتور عمرو شريف صرّح في بعض كتبه الأخيرة بأن فرضية التطور ما زالت في مرحلة الظن، حيث يقول: "وينبغي التأكيد على أن هذه الأدلة ليست قاطعة على حدوث التطور، لكنها مرجحة، وَيُؤَازِرُ بعضها بعضًا، ويعتبر القول بالتطور أفضل التفسيرات لوجودها! ".

الأمر الثاني: أما ما حَكَم به الدكتور عمرو شريف من أن جميع الأدلة والبراهين التي نقض بها الخلوقيون فرضية التطور، لا تدل على إبطال مبدأ التطور، وإنما غاية ما تدل عليه إبطال العشوائية والصدفة؛ فهو توصيف غير صحيح، بل إن الأدلة والبراهين التي قدموها تدل على أمرين أساسيين:

الأول: إبطال وجود أي أثر للصدفة والعشوائية في الكون والحياة، وذلك عن طريق إثبات التعقيد غير القابل للاختزال.

والثاني: إبطال حدوث التطور بالانتخاب الطبيعي البطيء، وذلك عن طريق حساب الاحتمالات الذي أثبتوا من خلالها أن الزمن الذي يتطلبه حصول التطور يفوق عمر الكون بأضعاف

بعض كلامه، فيقول: "وينبغي التأكيد على أن هذه الأدلة ليست قاطعة على حدوث التطور، لكنها مرجحة، وَيُؤَازِرُ بعضها بعضًا، ويعتبر القول بالتطور أفضل التفسيرات لوجودها!». إن الطريقة التي سار عليها الدكتور عمرو شريف في التعامل مع القرآن تؤدي إلى العبث به وبمعانيه، فكما أنه يخشى من الوصول إلى الحالة التي وصلت إليها الكنيسة في معارضة العلم، فإن منهجه في فهم النصوص يخشى منه أن يصل إلى حالة العبث بالقرآن وإضعاف قوته وثبوته، وذلك حين لا نلتزم في فهم نصوصه بالقواعد العلمية المنهجية، وحيث نصرّ على ربطه بنظريات لم تصل إلى درجة اليقين بعد، ما زال الجدل محتدمًا حولها بين علماء الاختصاص ذاته.

نقض استدلالات الدكتور عمرو شريف بالنصوص القرآنية على التطور الموجه:

حرص الدكتور عمرو على إثبات أن القرآن الكريم لا يعارض فرضية التطور الموجهة في خلق الإنسان، بل إنه تجاوز ذلك وادَّعى أن القرآن يدل عليها ويؤيدها، وأكد أنه لا يمكن الجمع بدقة بين كل ما جاء في القرآن الكريم عن خلق آدم إلا من خلال مفهوم التطور الموجه، وحاول أن يُجيب عن كل الآيات التي تتعارض مع قوله. ولأجل أن يكون الحديث واضحًا فإنا سنعرض

أولًا النصوص الدالة على الخلق الخاص لآدم، ونكشف عن وجه معارضتها لفرضية التطور الموجه، ونجيب عن تأويلات الدكتور عمرو لها، ثم نعرض ثانيًا الآيات التي استدل بها على صحة فرضيته، ونكشف عن وجه الخلل الذي وقع فيه.

أولاً: النصوص الشرعية الدالة على الخلق الخاص لآدم عليه السلام:

هناك أدلة شرعية عديدة تدل دلالة ظاهرة قوية على أن الله خلق آدم - أبا البشر والإنسان - خلقًا خاصًّا، وأن وجوده في الأرض لم يكن نتيجة تطور بيولوجي من أنواع حيوانية أخرى سابقة عليه، ومن أهم تلك النصوص الشرعية:

الدليل الأول: الآيات التي تدل أن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام خلقًا خاصًّا مباشرًا، منها: قوله تعالى مخاطبًا إبليس: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

وهناك نصوص أخرى تدل على المعنى نفسه، منها: حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن الناس يأتون إلى آدم فيقولون له: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده. فهذه النصوص تدل بوضوح على أن الله خلق آدم – أبا البشر والإنسان – خلقًا خاصًّا؛ حيث إنه خلقه بيديه مباشرة، وَمَيَّزَهُ على غيره من المخلوقات بهذه الطريقة في

الخلق، ولو لم يكن لخلق آدم بيد الله ميزة لما ذكره الله في سياق الإنكار على إبليس في بيان فضل آدم، ولما كان لذكر الناس له يوم القيامة أي معنى. وقد حاول الدكتور عمرو الجواب عن دلالة هذه النصوص، فذكر أن الخلق باليد ليس خاصًّا بآدم، وإنما هناك أشياء أخرى خلقها الله بيده، فالله – كما يقول – خلق الأنعام بأياد كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١] ، وبنى السماء بأيد كما في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ، واستدل بهذا على أن اليد المستعملةَ في الخلق ترجع إلى معنى القدرة التي أوجدت كل المخلوقات، لكن هذا الجواب غير صحيح من وجوه:

أولاً: هذا الكلام ليس فيه نفي الخلق المباشر لآدم، وعلى فرض بأن الخلق باليد ليس خاصًّا بآدم، فإن ذلك لا يدل على أنه خلق بالتطور؛ لكون دلالة تلك الآيات قائمة على إثبات الخلق باليد مباشرة وليست قائمة على إثبات خصوصية آدم بذلك، فسواء ثبتت خصوصيته بذلك أم لم تثبت؛ فإن دلالتها على الخلق المباشر ما زالت قائمة.

ثانيًا: فلأنه سلك في فهم النصوص فهمًا منحرفًا عن الطريقة الصحيحة، وذلك أنه فهم اليد المنسوبة إلى الله تعالى فيها على أنها

بمعنى القدرة، وهو فهم خاطئ معتمد على التأويل الكلامي -لصفات الله- المخالف لطريقة القرآن والسنة وفهم الصحابة الكرام وتلاميذهم. وقد أثبتَ علماء السلف من خلال دلالات النصوص الشرعية الكثيرة، أن لله تعالى يدين حقيقيّتين تليقان بجلاله وكماله، وأثبتوا أنها ليست بمعنى القدرة والنعمة. بل أثبتوا أن لفظ اليدين الذي جاء في آية خلق الله لآدم يستحيل أن يكون المراد بها القدرة، وأن المراد القطعي به اليد الحقيقية، وذلك من أوجه عدة:

منها: أن الله أضافَ الخلق إلى اليد مباشرة وعداها بحرف الباء، وهذا التركيب في لغة العرب يدل على المباشرة باليد.

ومنها: أن الله ذكرها في سياق إظهار فضل آدم على الخلق وتميزه عن غيره، ولو كان المراد باليد القدرة فإنه لا يكون لآدم أي تميز على غيره؛ لأن كل المخلوقات مخلوقة بقدرة الله. كذلك: استدلال الدكتور عمرو بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] على نفي اختصاص آدم بالخلق باليد؛ فهو فهم غير صحيح؛ لأن الله لم يذكر أنه خلق الأنعام بيديه، ولم يُعَدِّها بالباء كما ذكر في خلق آدم، وإنما

أضاف العمل إلى الأيدي، وهذا أسلوب معروف في لغة العرب يعبَّر به عن نسبة العمل إلى صاحبه، سواء بَاشَرَهُ بيده أم بغيرها، وقد جاء هذا الأسلوب كثيرًا في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، أي: بما فَعَلَهُ الناسُ من أعمال، سواء بأيديهم أم بأرجلهم أم بألسنتهم أم بغيرها. وعلى هذا، فما ذكره الله من خلق الأنعام فإن المراد به نسبة خلقها إلى الله تعالى من غير تحديدِ طريقة الخلق، وآية خلق آدم تدل على أن الأنعام لم تخلق بيد الله مباشرة؛ إذ لو كانت كذلك لما كان لآدم ميزة على غيره. وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فهو غير صحيح أيضًا؛ لأن المراد بالأيدي هنا القوة وليس اليد الحقيقية؛ لكون لفظ الأيدي في هذه الآية ليس جمع اليد الحقيقية، وإنما هو لفظ عربي آخر يعبَّر به عن القوة، وقد استعمل في القرآن بهذا المعنى في مواطن عدة، منها قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [ص: ٤٥]، أي أولي القوة، ومما يؤكد ذلك أن الله لم يُضِفِ الأيدي إلى نفسه وإنما ذكرها من غير إضافة.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وهذه الآية ظاهرة في الدلالة على أن الله تعالى خلق آدم خلقًا خاصًا من تراب، وأنه لم يكن نتيجة تطور من أنواع أخرى؛ وذلك أن هذه الآية جاءت في سياق الرد على النصارى ونقض قولهم في عيسى ابن مريم عليه السلام، ومن المعلوم أن النصارى ظَنُّوا أن مجيء عيسى من غير أب دليل على أنه ابن الله، فبيّن الله لهم أن آدم جاء من غير أب ولا أم، ومع ذلك فهو ليس ابنًا لله، فلأن يكون عيسى ابنًا لله من باب أولى وأَحْرَى. وتفسير الآية بهذا المعنى هو المستقر عند المفسرين؛ اعتمادًا منهم على السياق الذي جاءت فيه، وعلى الغرض الأساسي لها، وفي بيانها يقول الطاهر بن عاشور: «وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليهِ عيسى، وردّ مطاعنهم في الإسلام، وهو أقطع دليل بطريق الإلزام؛ لأنهم قالوا بإلاهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمةٍ من الله وليس له أب، فقالوا: هو ابن الله. فأراهم الله أنّ آدم أَوْلَى بأن يُدّعَى له ذلك، فإذا لم يكن آدم إلهًا مع أنه خلق بدون أبوين فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم. ومحل التمثيل كون كليهما خُلق من دون أب، ويزيد آدمُ بكونه من دون أم أيضًا،

فلذلك احتيج إلى ذكر وجه الشبه بقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ الآية، أي خلقه دون أب ولا أم، بل بكلمة كُن، مع بيان كونه أقوى في المشبه به على ما هو الغالب. وإنما قال عند الله أي نسبته إلى الله لا يزيد على آدم شيئًا في كونه خلقًا غيرَ معتاد». وقد حاول الدكتور عمرو أن ينفك عن دلالة هذه الآية، فذكر أنها «تنص على أن عيسى كآدم، خلق من تراب بكلمة كن، ونحن نعلم أن عيسى ولد من مريم العذراء، فإذا عيسى من تراب ونحن من تراب رغم وجود آباء لنا، فلم لا نفهم من القول بأن آدم من تراب أنه هو الآخر له آباء وأجداد بدأوا من التراب». لكن هذا الفهم للآية خطأ ظاهر؛ لأن فيه قفزًا متعسفًا لسياق الآية وتجاوزًا كبيرًا للغرض الأساسي الذي جاءت من أجله، فالله تعالى لا يريد أن يخبرنا خبرًا مجردًا بكيفية خلق آدم وعيسى فقط، وإنما يريد أن ينقض دعوى النصارى في استدلالهم بوجود عيسى بغير أب على أنه ابن لله، فأثبت الله لهم أنه لو كان استدلالهم صحيحًا لكان الأولى أن يكون آدم ابنًا لله؛ لأنه وجد بغير أَبٍ ولا أم، ومع ذلك فهم لا يقولون ببنوة آدم لله. ولو كان معنى الآية كما تَصَوَّرَهُ الدكتور عمرو لما كان فيها إلزام للنصارى ولا إبطال لقولهم؛ لأن غاية ما يدل عليه - بناء على فهمه - إخبار الله عن خلق آدم

وعيسى من تراب، وهذا الإخبار ليس فيه حجة عقلية مُلْزِمة للمخالفين.

الدليل الثاني: النصوص التي أوضحت تشكل المادة التي خلق منها آدم، فالله تعالى ذكر في القرآن الكريم المادة التي خلق منها آدم بأوصاف متعددة، مثل: التراب والطين والحمأ المسنون والصلصال، وقد أوضح عدد من المفسرين أن هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف المراحل التي مرّ بها تشكل المادة التي خلق منها أبو آدم، وفي بيان دلالتها يقول محمد الأمين الشنقيطي: « اعلم أن الله جل وعلا أَوْضَحَ في كتابه أطوارَ هذا الطين الذي خلق منه آدم، فبيّن أنه أولًا تراب، بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [غافر: ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات، ثم أشار إلى أن ذلك التراب بلّ فصار طينًا يعلق بالأيدي في مواضع أخرى، كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾ [الصافات: ١١]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧]، إلى غير ذلك من

الآيات، وَبَيَّن أن ذلك الطين أسود، وأنه مُتَغِيِّرٌ بقوله هنا: ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وبيّن أيضًا أنه يبس حتى صار صلصالًا، أي: تسمع له صلصلة مِن يبسه، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. وهذا التوضيح والتفصيل يَدُلَّانِ بجلاء على أن خلق الإنسان كان مختلفًا عن غيره من المخلوقات، وأنه مرّ بمراحل مختلفة كل الاختلاف عن المراحل التي يدَّعيها له أتباعُ فرضية التطور الموَجَّه.

ثانيًا: الآيات التي استدلَّ بها أتباع فرضية التطور الموجه وبيان خَطَئِهم:

جمع الدكتور عمرو شريف عددًا من الآيات لِيثبت من خلالها أن القرآن متفق مع فرضية التطور الموجه، وأنه يدل على صحتها، وقد ذكر ذلك من خلال وقفات مطولة، ويتحصل أهم ما استدل به في ستة أدلة، هي:

الدليل الأول: التفريق بين البشر والإنسان في القرآن، ويقوم هذا الدليل على أن القرآن يفرق بين زمن خلق الإنسان وزمن خلق البشر؛ لكونه يُعَبِّر عن خلق الإنسان بفعل الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]،

ويعبّر عن خلق البشر باسم الفاعل الذي يدل على الحاضر والمستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] وفي بيان الاستدلال بهذه الآيات يقول عمرو شريف: تُبيِّن هذه الآيات "أن الإنسان كان قد خلق فعلًا قبل أن يخبر الله ﷻ ملائكته بأنه سيخلق بشرًا من نفس مادة الإنسان، كلاهما من صلصال من حمأ مسنون، بل هو منه متطور عنه". فالإنسان وُجِدَ قبل البشر، ولم يتحول الإنسان إلى بشر إلا بعد أن نفخ الله فيه مِن روحه، ويؤيد هذا الفهم -نظر عمرو شريف- أن الله ﷻ لم يطلق على أيٍّ مِن رسله وأنبيائه لفظ إنسان، بل تحدث عنهم دائمًا بلفظ البشر فقط. لكن هذا الاستدلال غير صحيح، وهو في غاية البُعد عن الصواب؛ لأنه قائم على تفريق مدَّعًى لا حقيقة له، فنحن لا ننكر أن هناك فرقًا بين معنى لفظ الإنسان ولفظ البشر من حيث الاشتقاق اللغوي، ولا ننكر أن القرآن غَايَرَ بين اللفظين في الاستعمال، لكن هذه المغايرة لا تدل بحال على تنوع الحقيقة الوجودية التي يعبّران عنها. وهذا الأسلوب شائع الاستعمال في القرآن ولغة العرب؛ ففي التعبير عن حقيقة كلام الله يعبّر تارة بلفظ الكتاب، وتارة بلفظ القرآن، وتارة بلفظ الذكر، ولا شك في أن هذه الألفاظ مختلفة في مدلولها

اللغوي، ولا شك في أن القرآن لا يعبّر بأحدهما إلا وهو يقصد المعنى الذي يدل عليه في محله الذي ورد فيه، لكن ذلك كله لا يدل بحال على تنوع الحقيقة الوجودية لكلام الله. وكذلك الحال في التعبير عن حقيقة آدم ونسله، فإن القرآن يعبر عنها بألفاظ مختلفة؛ كلفظ البشر والإنسان والناس وبني آدم، وكل لفظ من هذه الألفاظ يؤدي معنىً مقصودًا لا يُؤَدِّيه غيره، لكن ذلك لا يعني الاختلاف في الحقيقة الوجودية للإنسان. ومما يدل على أن التغايرَ بين لفظي الإنسان والبشر في القرآن لا يعني الاختلاف في الحقيقة الوجودية؛ أنه عبّر بهما عن أصل خلقة بني آدم، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص: ٧١].

ومما يدل على ذلك أيضًا: أن القرآن استعمل لفظ الإنسان في التعبير عن المرحلة التي يُسَمِّيها عمرو شريف مرحلة البشرية؛ مرات كثيرة بلغت العشرات، من ذلك: قوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٦]، وقوله

تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]. بل إن القرآن لم يستعمل في التعبير عن تكليف بني آدم بالرسالات إلا لفظ الإنسان، فلو كان القرآن يغاير بين لفظي الإنسان والبشر في الدلالة على الحقائق الوجودية فكيف يصح أن يعبّر بالإنسان عن المرحلة البشرية كما يعتقد عمرو شريف؟! وأما الاعتماد على التفريق بين استعمال فعل الماضي واسم الفاعل، فهو خطأ ظاهر؛ لأن ذلك التفريق ليس راجعًا إلى اختلاف زمن الخلق، ولا إلى اختلاف حقيقة الإنسان عن حقيقة البشر، وإنما راجع إلى طبيعة السياق الذي جاءت فيه تلك الصيغ؛ فالتعبير بالماضي جاء في سياق إخبار الله لنا عن خلق آدم، فَمِن الطبيعي أن يكون بلفظ الماضي؛ لأن خلق آدم بالنسبة لنا أمر ماضٍ، واستعمال اسم الفاعل جاء في سياق إخبار الله الملائكة عن إرادته خلق الإنسان، فمن الطبيعي أن يكون بصيغة اسم الفاعل. ومما يدل على ذلك أيضًا أن الله أخبر الناس في عصر النبوة – وهم في طور البشرية عند عمرو شريف – عن أصل خلقتهم بلفظ الماضي أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ [الحج: ٥]، وكما

في قولـه تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١]. ما سبق يدل على أن الاختلاف في صيغ التعبير عن خلق آدم وذريته ليس دليلًا على اختلاف الحقيقة الوجودية التي نتحدث عنها.

الدليل الثاني: قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]، وقد ذكر الدكتور عمرو أن هذه الآية تدل على صحة التطور الموجه من جهتين:

الأولى: من جهة أن الله أخبر أنه اصطفى آدم، أي اختاره وفضله، ولا يكون الاصطفاء إلا من بين أقران له.

والأخرى: أن الآية ذكرت «أن آدم ذرية، أي: أنه ذرية لإنسان يسبقه، مثل: نوح وآل إبراهيم وآل عمران. لكن هذا الاستدلال غير صحيح؛ أما الجهة الأولى: وهي الاعتماد على معنى الاصطفاء، والادعاء بأنه لا يكون إلا من بين الأقران، فهذه دعوى غير صحيحة، فإن معنى الاصطفاء يرجع في اللغة إلى التصفية والاختيار، سواء كان من جنس الشيء أم من غيره، يقول ابن

فارس: «الصَّفِي: ما اصطفاه الإمام من المغنم لنفسه»، ومن المعلوم أن الغنائم قد تكون من أصناف مختلفة: سيوف ورماح وخيل ودراهم وسبايا وغيرها. وهذا يدل على أن القول بأن الاصطفاء لا يكون إلا من بين الأقران فقط؛ غير صحيح، وغير معروف في لغة العرب. وقد ذكر عدد من المفسرين أن معنى اصطفاء آدم أن الله فضّله على أجناس العالم من الملائكة والجن وغيرهم بأن خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأَسْجَدَ له ملائكتَه وعلّمه أسماء كل شيء، وأسكنَه جَنَّته. وأما الجهة الأخرى، وهي كون آدم ذرية لإنسان سبقه؛ فهذا الفهم غير مستقيم؛ لأن الصحيح الذي عليه كثير من المفسرين أن قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤]، راجع إلى آل إبراهيم وآل عمران؛ لأنهم الذين يَصْدُقُ عليهم معنى الذرية في لغة العرب. وعلى القول بأن لفظ الذرية يشمل الأربعة – آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران –، فإنه لا يصح الاستدلال به على أن آدم كان ذرية لغيره ممن سَبَقَه؛ لأن الآية لم تصفهم بأنهم ذرية فقط، وإنما وصفتهم بأنهم ذرية بعضهم من بعض، وهذا يدل على أن القصد من الآية إثبات أن كل هؤلاء بينهم صلة قوية إما في الدين أو في النسب، فهي شبيهة بقول الله تعالى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ [التوبة: ٦٧]؛

ولهذا لم يفهم أحد من المفسرين قَاطِبةً من تلك الآية أنها تدل على أن آدم كان ذرية لغيره لا من جهة اللغة ولا من جهة الشرع.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فالآية كما يقول عمرو شريف: تبيّن أن الخالق الكريم قد أنشأنا نحن البشر من ذرية قوم آخرين (الإنسان)، وهذا أقرب من القول بأن القوم الآخرين هم آدم أو أنهم أجدادنا، فأجدادنا لا يُوصَفُون بالآخرين». لكن الاستدلال بهذه الآية على أن آدم تطور عن مخلوقات سابقة عليه، غير صحيح؛ لأن الصحيح أن المراد بالقوم الآخرين في الآية هم الأجداد الذين كانوا سابقين على كفار قريش، وهذا القول ذهب إليه كثير من المفسرين، اعتمادًا منهم على السياق الذي جاءت فيه؛ وذلك أن الآية جاءت في سياق تهديد الله المشركين الذين كانوا يستخفون بعذابه ويستعجلونه، فبيّن الله لهم أنه مُتَّصِفٌ بالرحمة، وأنه لو شاء لَأَهلكَهم واستخلف من بعدهم قومًا آخرين لا يكونون مثلهم في العناد والعصيان، كما أنه سبحانه أنشأهم من قوم كانوا سابقين عليهم، ثم بيّن لهم أن ما يوعدون من العذاب قريب

منهم، فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٤، ١٣٥]، فسياق الآية إذن يدل على أن الخطاب متعلق بأقوام الأنبياء، وتهديدهم بإفنائهم واستخلاف غيرهم بهم، وليس متعلقًا بأصل جنس بني آدم. ومع ذلك، فقد فَسَّرَ ابنُ جرير الطبري قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ بقوله: «كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم»، لكنه عقّب تفسيره هذا بكلام يدل على أنه يعتقد أن بني آدم لم يُولَدوا من أنواع حيوانية أخرى، فقال: ومعنى (مِنْ) في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: (أعطيتك من دينارك ثوبًا)، بمعنى: مكانَ الدينار ثوبًا، لا أن الثوب من الدينار بعضٌ، كذلك الذين خُوطِبُوا بقوله: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم﴾، لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أُنشِئُوا من أَصْلَابِ قوم آخرين، لكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنَّهم أُنشئوا مكانَ خَلْقٍ خَلَفَ قوم آخرين قد هلكوا قبلهم». فابن جرير يحمل الآية على أن الله يخبر انه خلق بني آدم من ذرية قوم آخرين، لكن ذلك على جهة الإبدال في المكان والحال وليس على جهة التولد

والتطور البيولوجي كما يقول أتباع التطور الموجه. وأما الاعتماد على أن أجدادنا لا يُوصَفُون بالآخرين، فهو مخالف لاستعمال كلمة الآخرين في القرآن نفسه، فإنها كثيرًا ما تستعمل في التعبير عن الأصناف المختلفة من بني آدم أنفسهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨].

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.
[البقرة: ٣٠]

يقول عمرو شريف مبيّنًا وجه استدلاله بهذه الآية: «كيف عرفت الملائكة أن البشر الذين لم يخلقوا بعد سيفسدون في الأرض

ويسفكون الدماء؟!»، ثم ذكر الاحتمالات التي ذكرها المفسرون، فقال: «إن التفسير المباشر والأقرب من ذلك كله أن إنسانًا سابقًا للبشر كان يسكن الأرض ويقترف هذه الأفعال – قد يكون إنسان نياندرتال –، وقد رأته الملائكة مرأى العين». لكن الاعتماد على هذه الآية في إثبات أن القرآن يدل على أن آدم خلق بالتطور من حيوان سابق عليه؛ غير مستقيم؛ لأنه لا يقوم على بيّنة ولا دليل مفيد للعلم ولا للظن الغالب، فإن سبب سؤال الملائكة قد اختلف فيه المفسرون كثيرًا، وذكروا احتمالات متعددة، والصحيح في التعامل مع هذه القضية أنها تبقى في خانة الاحتمال التي لا يرجح فيها طرف على طرف؛ لأنها من الأمور المسكوت عنها في القرآن.
والدكتور عمرو شريف لم يقدم على فهمه أيَّ برهان أو دليل، وإنما كان معتمدًا على الظن والتخمين، وحين حكم على الاحتمالات التي ذكرها المفسرون لم يقدم أي دليل على ذلك. ثم إن الاحتمال الذي ذكره يمكن أن يقابل باحتمال آخر لا يَقِلُّ عنه في المنزلة، فيمكن أن يقال: إنه كانت مخلوقات شبيهة بالإنسان في الشكل تُفْسِدُ في الأرض، فأهلكها الله عن بكرة أبيها، ثم خلق آدم خلقًا خاصًّا مستقلًّا عن ذلك النوع، فلما رأت الملائكة صورتَه المشابهة لتلك المخلوقات تَبَادَرَ إليهم السؤال.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

يقول عمرو شريف في بيان دلالتها على قوله: « تشير الآية إلى أن الإنسان لم يخلق من الطين مباشرة، بل مِن سلالة خُلِقت من طين، وهذه السلالة هي الكائنات الحية التي خلقت من مادة الأرض، وتسلسل ظهورها حتى وصلنا إلى الإنسان، ويتوسع في إيضاح موقفه، فيقول: « تأمل هذه الآيات - آيات سورة المؤمنون - مع الأخذ في الاعتبار أن حرف العطف (ثم) يفيد التتابع مع التراخي، بالتالي نفهمه على أنه عطف يشير إلى الانتقال من نوع من الكائنات إلى نوع آخر، إذ يستغرق ذلك وقتًا طويلًا قد يمتد إلى ملايين السنين. لكن الاستدلال بهذه الآيات على أن القرآن يدل على أن آدم مخلوق من مخلوقات سابقة عليه؛ بعيد كل البُعد عن مدلول الآية ومرادها؛ وذلك أن معنى السلالة مأخوذ من قولهم: سلَّ الشيء إذا انتزعه واستخرجَه من غيره، والشيء المسلول هو المنتزَع من شيء آخر. والآية نَصَّت على أن الإنسان مُستَلٌّ

ومُسْتَخْرَجٌ من الطين، يقول ابن جرير في بيان معنى الآية: قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ أَسْلَلْنَاهُ منه.

فالسلالة: هي المستلة من كلّ تربة، ولذلك كان آدم خلق من تربة أُخِذَت من أَدِيم الأرض. فغاية ما تدل عليه الآية إذن هو إثبات أن أصل خلقة بني آدم وابتداءها كانت من الطين، وهي متطابقة مع قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧ - ٩]. ثم إن ظاهر هذه الآية يتناقض تمام المناقضة مع تصور أتباع فرضية التطور الموجه؛ لأن تصورَهم يقوم على أن آدم خُلق بطريق التطور عن كائنات أخرى، وأنه مولود لأبوين سابقين عليه، والآية تدل على أن الله اسْتَلَّه واستخرجه من الطين، وليس فيها ذكر لتلك الأنواع الأخرى التي يدّعي عمرو شريف أنها أصل لآدم. وما ذكره لا يعدو أن يكون دعوى لا دليلَ عليها ولا برهان. ولو كان الإنسان مستلًا من حيوانات أخرى سابقة عليه في الوجود، لَأَشار إليها القرآن ولو مرة واحدة، كما أشار مرارًا على استلاله من الطين والتراب. وأما

اعتماده على استعمال أداة «ثم» التي جاءت في شرح تطور الجنين في بطن أمه، ودعواه أنها تدل على تطور الخلق الإنساني عبر الأنواع الحيوانية التي كانت قبله؛ فهو في غاية الشطط والتكلف؛ لأن الآية تتحدث عن خلق الإنسان في بطن أمه وليس عن خلق أصل الإنسان وأوله الذي هو آدم. ثم إنها سمّت المراحل التي تتعاقب على التراخي، وهي النطفة والعلقة والعظام واكتساء العظام لحمًا، وهذه الأوصاف معلومة المعنى في العربية، وهي في الوقت نفسه لا تتطابق مع المراحل التي يذكرونها في تصور النوع الإنساني، فهل يقولون مثلًا: إن الإنسان كان في مرحلة من مراحل خلقته عظامًا دون لحم، ثم تطور وتحصل على اللحم في طور آخر؟!

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، يقول عمرو شريف في بيان استدلاله بهذه الآية: جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم أن قوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يعني كان معوجًا فقوّمه، فكلمة تقويم تعني تعديل وإزالة عوج.. إذن؛ يمكن أن نفهم من الآية الكريمة أن الإنسان لم يخلق خلقًا مباشرًا على صورته، بل خلق تعديلًا، ولا يكون التعديل إلا عن خلق سبقه». وأول ما يفاجئنا به الدكتور عمرو في هذا الاستدلال أنه

ترك كل التفاسير المعتمدة عند أهل الاختصاص واعتمد على معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره مجمع اللغة العربية! وهذا خَلَلٌ منهجي ظاهر في التعامل مع تفسير القرآن الكريم؛ لأن فيه قفزًا للمصادر الأصلية وانتقالًا إلى المصادر الثانوية التي لا تهتم بتحديد المراد من الآية بِدِقَّةٍ. ونحن إذا رجعنا إلى كتب التفسير نجد أن المفسرين اختلفوا في معنى: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، فقال أكثرهم: أي في أحسن صورة وأفضل شكل وأعدل قامة، وقد قال بهذا التفسير ابن عباس وإبراهيم النخعي وأبو العالية ومجاهد وغيرهم.

وقال بعضهم: أي أن الإنسان يبلغ في شبابه إلى أعلى قوة واعتدال، ثم ينحدر في شيخوخته إلى الضعف. والصحيح القول الأول، يقول ابن جرير في بيان وجه صِحَّتِهِ: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأَعْدَلِهَا؛ لأن قوله: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ إنما هو نعت لمحذوف، وهو في تقويم أحسن تقويم، فكأنه قيل: لقد خلقناه في تقويم أحسن تقويم». ثم إن معنى تقويم في لغة العرب لا يلزم منه أن يكون الشيء معوجًا قبل ذلك، وإنما يعني جعل الشيء في قَوام،

أي في اعتدال واستقامة وكمال، يقول ابن فارس: القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما اسْتُعِيرَ في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم؛ ولأجل هذا توارد جمهور المفسرين على تفسير الآية بكون الإنسان خلق في أحسن صورة واعتدال وانتصاب، ولم يذكر أحد منهم أن لازم ذلك أن أصلَه كان غير ذلك[1].



(١) الاستدلال بالقرآن على فرضية التطور الموجه (قراءة نقدية) سلطان العميري.

حقائق علمية واضحة في القرآن

(كُرَوية الأرض)

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: القرآن كلام الله المتعبَّدُ بتلاوته إلى يوم القيامة. ومعنى ذلك: أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون؛ لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدَّل، ولو حدث مثل هذا التصادم لَضَاعَت قضية الدين كلها، ولكن التصادم يحدث من شيئين: عدم فهم حقيقة قرآنية، أو عدم صحة حقيقة علمية.. فإذا لم نفهم القرآن جيدًا وفسرناه بغير ما فيه، حَدَثَ التصادُمُ، وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم، ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية؟ ولنضرب مثلًا لذلك: الله سبحانه يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ المَدُّ معناه البَسْطُ، ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة، ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لاتّهمنا كُلَّ مَنْ تحدّث عن كُرَوِيَّةِ الأرض بالكفر، خصوصًا أننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قدِ استطعنا أن نرى الأرض على هيئة كرة تدور حول نفسها، نقول: إن كل مَن فهم الآية ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة، ولكن المعنى يجمع

الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معًا ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

عندما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ [الحجر: ١٩] أي بسطناها أقال أي أرض؟ لا لم يحدد أرضًا بعينها؛ بل قال الأرض على إطلاقها ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضًا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة، فإذا كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي أو في أمريكا أو أوروبا أو في أفريقيا أو آسيا أو في أي بقعة من الأرض فإنك تراها أمامك مُنْبَسِطَةً، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كُروية، فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر، فإنك تصل فيها إلى حافة لا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء، ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية، حتى إذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية، فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائمًا منبسطة، وما دام الأمر كذلك، فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة، وهكذا كانت الآية الكريمة ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾

لقد فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض، وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم، يأتي باللفظ الواحد لِيناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية. ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة قالوا: هناك تَصَادُمٌ بين الدين والعلم، والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهمًا صحيحًا قالوا: إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا ولكنهم لا يؤمنون.وهكذا نرى الإعجاز القرآني، فالقائل هو الله، والخالق هو الله، والمتكلم هو الله، فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا أن الأرض كروية، وأنها تدور حولَ نفسها. ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معًا، هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون؟

ثم يأتي الحق ﷻ ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية لأنه ﷻ يريد أن يُرِيَ خلقَه آياته، فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وهكذا يصف الحق ﷻ بأن الليل والنهار خُلِقَا على هيئة التكوير،

وبما أن الليل والنهار وُجِدَا على سطح الأرض معًا، فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير.. إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية. بحيث يكون نصف الكرة مظلمًا والنصف الآخر مضيئًا، وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا..فلو أن الليل والنهار وُجِدَا على سطح الأرض غير متساويين في المساحة. بحيث كان أحدهما يبدو شريطًا رفيعًا في حين يغطي الآخر معظم المساحة، ما كان الاثنان معًا على هيئة كرة؛ لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع أو أي شكل هندسي آخر حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض، وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار.[١] انتهى. يقول الإمام فخر الدين الرازي[٢]: إن مَدَّ الأرض هو بَسْطها إلى ما لا يُدْرَكُ منتهاه، و قد جعل الله حجم الأرض عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه، و الكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح المستوي الامتداد. يقول أبو حيان[٣]: قال أبو عبد الله

---

(١) الأدلة المادية على وجود الله (الشعراوي).

(٢) مفاتح الغيب للرازي.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان.

الداراني: ثبت بالدليل أنّ الأرض كرة، ولا ينافي ذلك قوله: مد الأرض، وذلك أنّ الأرض جسم عظيم. والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان قطعة منها تشاهد كالسطح. قال ابن النفيس في شرح كتاب تشريح قانون ابن سينا: معللًا سبب عدم رؤية الأجسام من بعيد: هذا يتم سواء كانت العين مرتفعة أم منخفضة، ولكن العين المرتفعة ترى أكثر مما إذا كانت غير مرتفعة، وسبب ذلك ليس زيادة قوتها أو زيادة إدراكها، بل إن تشكُّل الأرض كرة، فالبعيد جدًّا ما هو على ظاهر الأرض يَنْسَتِرِ عن الرؤية بحدبة الأرض. قال الذهبي[1]: الأرض في وسط السماء كبطيخة في جوف بطيخة، والسماء محيطة بها من جميع جوانبها، وأسفل العالم هو جوف كرة الأرض، وهو المركز، وهو منتهى السفل والتحت وما دونه ـ لا يسمى تحتًا، بل لا يكون تحتًا، ويكون فوقًا، بحيث لو فرضنا خرق المركز ـ وهو سفل العالم ـ إلى تلك الجهة، لكان الخرق إلى جهة فوق. ولو نفذ الخرق جهة السماء من تلك الجهة الأخرى، لَصَعَدَ إلى جهة فوق. وبرهان ذلك: لو فرضنا مسافرًا سافر على كرة الأرض من جهة المشرق إلى جهة المغرب، وامتد مسافرًا، لمشى

---

(١) مختصر العلو (للذهبي).

مسافرًا على الكرة إلى حيث ابتدأ بالسير وقطع الكرة مما يراه الناظر أسفل منه، وهو في سفره هذا لم يبرح الأرض تحته والسماء فوقه. فالسماء التي يشهدها الحس تحت الأرض، هي فوق الأرض لا تحتها؛ لأن السماء فوق الأرض بالذات.

قال أبو بكر الصوفي كما ورد في "وفيات الأعيان" لابن خلكان: لو وضعنا طرف حبل على أي موضع كان من الأرض، وأدرنا الحبل على كرة الأرض، انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض، التقى الطرفان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [1]: نفى بعض الجهال أن تكون الأفلاك مستديرة، فمنهم مَن ينفي ذلك جَزْمًا، ومنهم مَن ينفي الجزم به على كل أحد، وكلاهما جهل. فمن أين له نفي ذلك أو نفي العلم به عن جميع الخلق، ولا دليل له على ذلك إلا ما قد يفهمه بفهمه الناقص. هذا وقد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة أن الأفلاك مستديرة، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ

(١) مجموع الفتاوى (ج ٢٥-١٠٥).

يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل. وهكذا هو في "لسان العرب" الفلك: الشيء المستدير. وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾.

والتكوير هو التدوير، ومنه قيل للكرة: كرة، وهي الجسم المستدير، ولهذا يقال للأفلاك: كروية الشكل، ومنه الحديث: "إن الشمس والقمر يكوران يوم القيامة" وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]. مثل حسبان الرحا. وقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣]. وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرهما، فإنه يتفاوت؛ لأن زواياه مخالفة لقوائمه، والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي، ليس بعضه مخالفًا لبعض، ثم أورد بعَض نصوص السنة، وَأَرْدَفَ ذلك بأقوال مَنْ حكى الإجماع على كروية الأرض، فقال: وأما إجماع العلماء، فقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار في فنون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد: لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، قال: وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر

والبحر مثل الكرة. قال: ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع مَن في نواحي الأرض في وقت واحد؛ بل على المشرق قبل المغرب.

وقال ابن القيم[١]: الطائفة الثانية رأت مقابلة هؤلاء بِـرَدِّ كـل ما قالوه مِن حق وباطل، وظَنُّوا أن من ضرورة تصديق الرسـل رد ما علمـه هـؤلاء بالعقـل الـضروري، وعلمـوا مقدماتـه بـالحِسِّ، فنازعوهم فيه وتعرضوا لإبطاله، بمقـدمات جدليـة لا تُغْنِـي مـن الحق شيئًا، وَلَيْتَهم مع هذه الجناية العظيمة لم فوا ذلك إلى الرسـل؛ بل زعموا أن الرسل جاءوا بما يقولونه، فساء ظن أولئك الملاحـدة بالرسل، وَظَنُّوا أنهم هم أَعْلَمُ وأَعْرَفُ منهم، والذي سَـلَّطَهُم عـلى ذلك جحد هؤلاء لِحَقِّهِم ومكابرتهم إياهم على ما لا يمكن المكابرة عليه مما هـو معلـوم لهـم بالـضرورة، كَمُكَـابَرَتِهِم إيـاهم في كـون الأفلاك كروية الشكل والأرض كذلك.

وقال ابن حزم في "الفِـصَل": إن أحـدًا مـن أئمـة المـسلمين المستحقين لاسم الإمامة بـالعلم رضي الله عنهم لم يُنكـروا تكـويرَ الأرض، ولا يُحفظ لِأَحَدٍ منهم في دَفْعِهِ كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم.

قد جاءت بتكويرها، ولا يرد على كل هذا الذي ذُكِرَ قول البعض بأن الأرض بيضاوية زعمًا منه أن الدحو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أنها على شكل بيضة، لم يقل هذا الكلام أحدٌ من أهل العلم المعتبرين، ولا حتى هو معنًى من معاني اللغة.

بعض الشبهات المثارة من بعض الملحدين:

قد ذكرنا جُلَّ الشبهات التي يتمسك بها الملحدون في قضية الخلق والحياة والإنسان، وهناك شُبَهٌ أخرى متعلقة بالقرآن وقضايا العقيدة، وهذا باب آخر؛ لذلك سَنَمُرُّ عليها مرورًا سريعًا.

الشبهة الاولى: يقولون: لماذا خلقنا الله؟ هل هو في حاجة إلينا؟ وهذه يرجع إليها تفصيلًا في كتب العقيدة، وعلى كُلٍّ؛ فالله خلق لنا الحياة ليس ليعلم عملنا فيها، ولكن لِيُظْهِرَ حقائق أنفسنا، حتى لا يَبْقى لأحدٍ حُجة إذا تخلَّف عن العبودية، ولكي نعمل كما أمرنا، فالنتيجة معلومة مسبقًا لله، لكن ليست معلومة لدينا.

الشبهة الثانية: يقولون: ما ذنب مَنْ وُلِدَ على غير الإسلام وسعادة مَن وُلِدَ مُسلما؟ أولًا: الله ﷻ خلقَ الجميع على الفطرة الأولى، وهي القبول للإسلام، وخلق في كل مخلوق من البشر قدرة وإرادة واختيارًا، فمنهم مَن أصبح مؤمنًا، ومنهم مَن أصبحَ كافرًا.

ثانيًا: هل كل مَنْ وُلِدَ على غير الإسلام مات كافرًا؟ وهل كل مَنْ وُلِدَ في الإسلام مات مسلما.

الشبهة الثالثة: عن قضية وجود الشر، لطالما أن الشر موجود، إذن الرب غير قادر على مَنْعِه، أو هو رَبٌّ شرير، وإن كان لا يريد الشر فقد خلقنا وتركنا. بداية، لا بد من التفرقة بين قضية الخلق، وهذه تَكَلَّمْنَا عنها بالتفصيل، وبين قضية وجود الشر، فالسؤال الآن: كيف عرفت أنت الخير من الشر؟ فالذي رَكَّبَ فيك الخير والشر هو الذي خلقه. أَمَّا لماذا خلقَه فالحِكَمُ في ذلك كثيرة، منها: اختبار العباد وظهور عبادات منهم لم تكن موجودة لولا وجود الشر. أما أنه رب شرير لأنه خلق الشر، فَبَاطِلٌ؛ بل هو خَلَقَ الشر وركَّب فيك معرفتَه حتى تجتنبَ الشر وترفضَه وتمنعَه وَتُقْبِلَ على الخير وتفعله. إذن؛ هو إله خير. أما أنه سبحانه يعلم ما الذي سنفعله، نقول لهم: هل تريدون ربًّا جاهلًا عاجزًا.

الشبهة الرابعة: لماذا يعذب الله عباده أبد الآباد مع أنهم عَصَوْهُ فترةً محدودةً؟ الإجابة: علاقة العقاب بالعمل ليست علاقة تَسَاوِي زمني بالضرورة، بل هي علاقة سبب بالنتيجة.. مثلًا: في الدنيا رجل يدخن فتتلف رئته باقي عمره، هل نقول: دَخَّنَ خمس

سنوات إذن تتلف رئته خمس سنوات من باب العدل؟ لاحظ أننا لا نرى هذه الاعتراضات في حياتنا..

مثال آخر: رجل سَرَقَ خلال ساعتين، هل ترانا نقول يُسْجَنُ لمدة ساعتين عقابًا؟ لا، لأن العلاقة ليست زمنية بين الخطأ والنتيجة المترتبة، وإنما هي علاقة سبب بنتيجة. مثال ثالث: رجل شرب سُمًّا فمات، لا نقول هو شرب السم في مدة ١٠ ثوانٍ، لماذا ذهب ولن يعود أبدًا، جاء في تفسير ابن كثير في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، أي: خير عملًا كما قال محمد بن عجلان، ولم يقل: أكثر عملًا.. يعني حتى على مستوى الحسنات والسيئات ليست العبرةُ مُقْتَصِرَةً على الكثرة والقِلة.. وكلنا نعرف أحاديث مَنْ يدخل الجنة في كلب، وتدخل النار في هِرَّة، والله يقول: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤]، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن هذه تشبيهات مع الفارق؛ لأن عقاب الآخرة ليس كعقاب الدنيا، ولكنها للتقريب فقط.. وكما يقال: لا تنظر إلى صِغَرِ المعصية ولكن انظر إلى عَظَمَةِ مَن عَصَيْتَ! والذي ينتقد مسألة أبدية العذاب فعليه أن يأخذ في الحُسبان أبدية النعيم أيضًا، فكما أن هناك عذابًا

أبديًّا، فهناك نَعيمٌ أبديٌّ، وهناك مجانسة بين بعض النفوس المُجرمة وبين النار، فيتطابقان في الآخرة، فالحاسد والحاقد والمجرم هؤلاء مأواهم هو دارهم، وهو النار، أما عن كيفية التعذيب فهي غَيْبٌ لم نَطَّلِع عليه، وليس لنا من الدنيا إلا المُسميات " فأهل النار مثلًا يتكلمون داخل النار ويتلاعنون، ويوجد في النار ماء حميم، وتنبت فيها شجرة من زقوم، وهكذا إذن. الأمر غيب" ولو عاد الكافر إلى الدنيا وأُتِيحت له فرصة التكليف مرة أخرى سيعود لِكُفْرِهِ، وهذا ما جزم به القرآن الكريم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فلو عاش الكافر أبدًا لَكَفَرَ أبدًا، أيضًا العذاب الأبديُّ مُختَلف فيه بين السلف، قال ابن مسعود: لَيَأْتِيَنَّ على جهنم زمانٌ تخفق أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

وعن الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا، وأسرعهما خرابًا، وعن عمر رضي الله عنه : لو لبث أهل النار عدد رمل عالج، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه. [الدر المنثور (٣/ ٣٥٠)].

الشبهة الخامسة: الله يعلم إلى أين مصيري حتى قبل أن يخلقني، فلماذا سَيُعَذِّبني؟ مشكلة الملحد في هذه الشبهة أنه لا يريد إلهًا كُلِّي العلم، وكأنه يعيب على الله أنه يعلم ما سيحدث.. الله كُلِّيُّ

العلم، وهذا لا يمنع حريةَ الاختيار ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].. بل يمكن أن نقول بنفس منظور الملحد: إنه من الظلم ألا يخلق الله الكفار وهم يستحقون العقاب، ثم إن الكفار ليسوا مقهورين على الشر؛ بل إن فطرتهم كانت سليمة، وهم حرَّفوها و لديهم عقل، وأرسل الله لهم أنبياء ورسلًا وهم اختاروا الكفر، وليس من الحكمة وضع الرحمة بمن لا يستحقها. ثم إن الأشرار لو لم يوجدوا لكان ذلك سببًا في عدم وجود بعض الأخيار، وأفعالهم وصبرهم على شر الأشرار، ودعوتهم للأشرار، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذن؛ فالله تعالى أوجد الجميع وترك حرية الاختيار لِلكُلِّ، وهذا هو ما عليه مَدَارُ الأمر. ثم إن الله لن يظلمَ عبادَه ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٨]. فلا يقلق الملحد إلا على نفسه. وفي الختام، فهذه بعض السؤلات لمن وقعَ في فخ هذه الفرضية المقيتة، عَلَّها تكون سببًا في التفكر في هذه الخرافة المسماة نظرية دارون.

الشبهة السادسة: لماذا لم يَسْتَشِرني الله قبل خلقي؟

الإجابة:

أولا: هذا السؤال غير منطقي؛ لأن هذا الشخص لم يَكُنْ

موجودًا أصلًا حتى يُسْتَشَارَ.. فكأنه يقول: لماذا لم يَسْتَشِرِ اللـهُ غيرَ مخلوقٍ في أن يُخلق قبل أن يُخلق!!!

ثانيًا: الاستشارة ليست من أفعال مطلق العلم والحكمة والقدرة.. فالاستشارة إما أن تكون: ممن عنده نَقْصٌ في العلم، أو رغبةٌ في العَوْنِ، أو سياسة للناس، أو لِتردد في الأمر، وكل هذا مُنْتَفٍ في حق الله تبارك وتعالى..

ثالثًا: الإنسان لا يُحَاسَبُ على مجرد وجوده، لكنه سَيُحَاسَبُ على أعماله التي فعلها بعد وجودِه وطاعته ومعصيته لخالقه..

الشبهة السابعة: لماذا خلق الله الكافر؟

الإجابة:

التفرقة بين اعتبارين:

-- اعتبار العدل الإلهي في محاسبة الكافر، وأنه مسئول بالكلية عن أعماله التي جعلت مصيرَه إلى النار.

- اعتبار الحكمة الإلهية من خلق الكافر وابتلاء المؤمنين به.

- وينبغي أن يعلم أن خلق الله للكافر وجعل قلبه مريدًا لِلْغَيِّ وللضلال وللكفر، وأن الله تعالى هو الذي خلق هذا القلب ابتداءً وخلق فيه هذه الإرادة﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ

وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] ، إن هذا من جملة الإيمان بالقدر والغيب وليست كل مسائل القدر معلومة لنا؛ بل هناك مسائل فيه هي من الغيب، ينبغي أن نُسَلِّمَ لها ونستسلم لها، ونعلم أن هذا الأمر لحكمة بالغة وعلم تام وعدل تام كَبَقِية أفعال الله تبارك وتعالى، وأن الله لا يظلم العباد مثقال ذرة، وأنهم لن يحاسَبَهم إلا على أفعالهم وأعمالهم، وأن مَنْ يدخل الجنة فَبِرَحْمَةِ الله وفضله، وَمَن يدخل النار فَبِعَدْلِ الله التام، ولذا أرسل إليهم الرسلَ وأنزل عليهم الكتب وَرَغَّبَهُم وَرَهَّبَهُم، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين، وأعلم بالشاكرين، وأعلم بِمَن ضَلَّ عن سبيله، سبحانه وبحمده، لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يسألون، والله يعلم وأنتم لا تعلمون..

الشبهة الثامنة: لماذا تتعدد الأديان؟ وكيف نعرف الدين الحق؟

الإجابة:

أولاً: تعدد الأديان في حَدِّ ذاته دليل على وجود الله لا العكس، ونظرًا لوجود حاجة فطرية في نفس عامة الخلق إلى التعبُّد ذهبوا يبحثون عن دين يدينون به وإله يتعبدون له..

ثانيًا: تعدد الأديان ليس دليلًا على بطلانها كلها، ولا يلزم منه ذلك لا عقلًا ولا عرفًا ولا واقعًا.. ولكن غاية ما في الأمر أن بعضها حق وبعضها باطل دَخِيل.. وهذا كمثل وجود أنواع جماعة من الناس أطباء وغير أطباء يزعم الجميع أنه طبيب.. فليس الحل حتى أريحَ نفسي أن أزعم أنهم جميعًا غير أطباء؛ بل يلزمني البحث والتحري والتثبُّت حتى أَصِلَ إلى الطبيب منهم مِن الدَّعِيِّ..

ثالثا: تقدير الله تعالى الخلاف في أمر الديانات بصفة عامة (السماوي والأرضي منها) هو من جملة الاختبار والابتلاء الذي قَدَّرَهُ الله على الخلق، ولم يترك الله عبادَه هملًا، بل أقام عليهم الحجةَ البالغةَ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبسط دلائل توحيده والإيمان به في النفوس والفطر وفي الخليقة جميعًا... ولا يُحاسَبُ العباد ولا يُعَذَّبُوا لمجرد وجودهم وسط هذا الاختبار من الخلافات؛ بل لا يُعَذَّبُ أَحَدٌ إلا بعد وجود عقل تام عنده وبلوغ تام، ووصول دعوة الرسل إليه.. وعذر من لم تبلغه دعوة الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

رابعًا: يُعْرَفُ الدينُ الحَقُّ عن طريق أحد أمرين:

- طريق داخلي.. بالبحث داخل الدين عن صفات الإله المعبود فيه وتعاليمه وشرائعة وصحتها وشموليتها...

- و طريق خارجي.. بالبحث عن دلائل صدق هذا الدين، بالبحث عن دلائل صدق النبوة والرسالة الداعية له...

الشبهة التاسعة: لماذا يجب على الكافر البحث عن الدين الحق، بينما المسلم لا ينبغي له ذلك؟

الجواب:

- لأن المسلم لا يجد نقصًا أو تناقُضًا أو خللًا في دينه وعقيدته وشريعته ـ تجيب له عن كل أسئلته الفطرية وَتُلبي له كل احتياجاته.

بينما غير المسلم نزعم أنه ليس عنده شيء من ذلك ونورد عليه ما يدل على ذلك ولا يجد مدفعًا له.

ومثال ذلك: رجل معه حلقة مفاتيح وطلب منه أن يجرب ما فيها من مفاتيح لفتح الباب، فجرب أول مفتاح ففتح معه، فالعقل يقتضي ألا يجرب باقي المفاتيح؛ لأن الغاية من هذه المفاتيح أن يفتح الباب وقد فتح، أما الآخر فجرب فلم يفتح له الباب، فلا يزال يجرب حتى ينفتحَ له الباب..

الشبهة العاشرة: كيف يدخل الكافر الذي قدم خدمات جليلة للإنسانية في النار، بينما المسلم الذي يرتكب جرائم وفظائع يدخل الجنة؟

الإجابة:

- أولاً: الله ﷻ هو خالق الجنة، فهو وحده الذي له الحق في إدخال مَنْ شاء فيها، وإنما خلقها سبحانه لمكافأة مَن آمنَ به وأَطَاعَه إياها، فَمَن كفر به لم يستحق أن يدخلها، وَمَن عصاه عَرَّضَ نفسَه للتأخر عن دخولها إلا أن يعفوَ الله عنه..

- أما مَن قَدَّمَ خدمات للإنسانية، فإنه قَدَّمَهَا للإنسانية من أجل الدنيا والأرض والناس، لا مِن أجل الآخرة والسماء والله، وإلا لو كان يبذلها رجاء ثواب الله رب العالمين لآمن به وطلب ثوابَه وَجَنَّته، لكنه أعلنَ تمردَه وعصيانَه وكُفْرَه بخالقه، ورفض المكافأة، واستعانَ بالعقوبة على جُرْمِهِ العظيم..

ثانيًا: الجزاء على قدر الطاعة، والعقوبة على قدر الجرم والذنب. وأعظم طاعة وحسنة وعمل، هي التوحيد والإيمان بالله تبارك وتعالى رب العالمين وخالق الناس جميعًا وخالق الدنيا والآخرة والسماوات والأرض، وأعظم وأقبح وأفظع جريمة وذنب وخطيئة على ظهر الأرض وفي هذه الدنيا، هي الشرك والكفر بهذا الخالق العظيم.

ثالثًا: مثال:

- لو أن طالبًا.. دخل الامتحان فترك الإجابة عن السؤال الإجباري (مثل التوحيد) الذي على النجاح والرسوب، وأجاب عن جميع الأسئلة الاختيارية (أي عمل آخر).. فماذا تتوقع أن تكون نتيجته؟!..

- لو أن طبيبًا زَيَّنَ غُرْفَةَ العمليات ونظفها وملأها بالورود، ولما أدخل المريض لغرفة العمليات أخذ يهتم بتزيين الغرفة وتجميلها وانشغل عن إجراء العملية للمريض حتى مات.. فما حكمكم على هذا الطبيب هل نعذره أم نعتبره قاتلًا؟!..

رابعًا:

من الجور وعدم الإنصاف، تلك المقارنات الجائرة بين أَجْوَدِ الأمثلة السلوكية عند الكفار، وأسوأ الأمثلة السلوكية عند المؤمنين.. ولو أردت.. فتعالوا نعكس الأمر، فنقول:

كيف يسوى بين كافر يرتكب الفظائع والجرائم، وبين مسلم يقدم خدمات جليلة للإنسانية؟

كيف يسوى بين هتلر وموسوليني، وبين عمر بن عبد العزيز أو حتى أحمد زويل؟!..

هل من العدل أن يسوى بين:

مؤمن تَحمَّل مشقة التكاليف الشرعية، وقَدَّمَ النفعَ والخدمات للإنسانية.

وكافر لم يتحمل شيئًا من التكاليف الشرعية ولم يلتزم بشيء في حياته منها وقدم النفع والخدمات للإنسانية؟!..

وأخيرا: أسئلة للملحدين أتباع داروين:

١- قلتم: إن تطور الخلية الأحادية للمتعددة ثم للأحياء المختلفة؛ أمر افتراضي اعتمد على تفسير ظاهرة الموجود مع اكتشافات الحفريات ومعرفة تاريخها، فقلتم إن الخلايا الأحادية قد وُجدت قبل بليون عام أو أكثر، وظهرت اللافقاريات قبل "٥٠٠ - ٦٠٠" مليون سنة مع الديدان والحشرات، وبدأت الفقاريات في الظهور قبل ٤٥٠ مليون سنة ومثلها الأسماك، وظهرت الفقاريات البرية قبل ٣٥٠ مليون سنة، وظهرت الثدييات قبل ١٨٠ مليون سنة والطيور قبل ١٣٥ مليون سنة، وأول إنسان قبل حوالي ٦ مليون سنة على حسب ما ذكرتم في نتائج حفرياتكم. فهل رأيتم هذا التطوّر بأعينكم؟

بما أنه لم يسبق لأحد أن رأى عملية التطوّر هذه فعليًّا من قبل

ولا يمكن حتى إثبات أن هذه العملية تتم بشكل مستمر، فهي - بناءً على كلامكم - غير موجودة.

٢- حاليًا في عالم الحيوانات فقط يوجد حوالي أكثر من خمسة ملايين نوع. وبلا شك فإنّ الخلايا الأحادية ما زالت موجودة حتى الآن كالبكتيريا من غير أن نرى لها تطورًا، وهنالك من الأحياء ما هو موجود بصورته التي وُجِدَ بها في سحيق الزمان، فكيف يمكن أن نستنتج من غير برهان أن الأنواع الأخيرة كانت نتاج تطور الأنواع الأولى بالطفرات والصدفة، مع تواجد الأحياء ذات الخلايا الواحدة حتى يومنا هذا؟.

٣- الداروينية وخَلْق الذباب: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

خَلْقُ الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل؛ لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز، سر الحياة، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل، ولكن الأسلوبَ القرآنيَّ المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظِلَّ

الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! فَلِكُلِّ مَن يَدَّعِي بأنه ليسَ هناك خالق، أو أن هنالك طريقة للخلق بدون خالق فليخلق ذبابة، وَلْنُطَبِّق ذلك على الداروينية:

- الذباب حشرة ولم يُوجَد أي تطور في الحشرات!

- الذبابة تتغذى على أنواع مختلفة ولها أشكال مختلفة.

- الذبابة ذكر وأنثى وتتناسل، فكيف يفسر التطور ذلك!

- الذبابة حية تطير وتأكل وتتبرز وتموت، فما سر ذلك؟ فهذه الحشرة الصغيرة وحدها تؤكد بأن لها خالقًا، وأنها حجة لمن يدعي وجودها بالصدفة وحقًّا قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].



الخاتمة

لِيعلم الجميعُ أن الشريعةَ الاسلامية قد حكمت على الخلق أحكامًا جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلا بها؛ لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير، وَتَذُودُهم عن الشرور. أما باطنها فلأن المتصِفِين بها، الملتزمين بالدين على وجه، قد توجهت قلوبُهم إلى القيام بالدين، واعتبرهم أفرض الفروض وأوجب الواجبات، رَاجِين بذلك فضل الله وثوابه، محتسبين خيره، ومَن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعه من الحواجز و الرواجع و الحدود ما يعينه على التزامه فى عقائده وأخلاقة وآدابه و حقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء و ذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم. وأما القوانين الملحدة؛ فإن غايتها إذا قَوِيَت أن تُسَيْطِرَ على بعض الظواهر. وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق؛ فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف و تقصد أن يكون البشر كالبهائم اباحيين فوضويين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم، وَتُفْضِي إلى الشرور وتنتهى إلى الحروب، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل، ومما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية

التي أرشدَ إليها الـشارعُ باقيـةٌ ببقـاء البـشر، صـالحةٌ لكـل زمـان ومكان، بل لا تصلح الأمورُ إلا بها.

وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التي لم تُبْنَ عـلى الـدين، فإنها مؤقتة بحسب ما يرون من مـصالحهم ومـضارهم فى الوقـت الذي هم فيه، ثم تتغير وتتبدل، وربما غَيَّرَهَـا وَاضِـعُوها لأنهـا مِـن صنيع البشر، وصنعهم كلـه نـاقص، واعلـم أنـه لا يوجـد قـانون صحيح أخذت به الأمم إلا وهو فى الـدين عـلى أكمـل مـا يكـون وأصح ما يكون وأسلم ما يكون الى النقص، فليأت المرتابُ بمثـال واحد خارج عن هذا الأصل إن كان صادقًا.



المصادر والمراجع



- حقيقة الخلق ونظرية التطور. محمد فتح الله كولن
- داروون ونظرية التطور: شمس الدين آق بلوت.
- أفي الله شك – بحث في علاقة العلم بالإيمان. حمد المرزوقي.
- الإلحاد – محمد الخضر حسين.
- آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين –أبو الفداء ابن مسعود.
- الإلحاد، أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها. عبد الرحمن عبد الخالق.
- خرافة الإلحاد – عمرو شريف.
- مجموعة من المؤلفين: الله يتجلَّى في عصر العلم.
- الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان.
- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين. عبد الرحمن ناصر السعدي.
- رسالة في الرد على التطوريين. أبو الفداء ابن مسعود.

- المعجزة الخالدة، براهين ساطعة وأدلة قاطعة- علي محمد الصلابي.
- العقيدة في الله – عمر الأشقر.
- الفيزياء ووجود الخالق – جعفر شيخ إدريس.
- شبهات الملحدين والإجابة عنها – محمد جواد مغنية.
- الاستدلال بالقرآن على فرضية التطور الموجَّه.. قراءة نقدية – سلطان العميري.
- تشارلز داروين: أصل الأنواع: ترجمة إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٣٧.
- عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين – صالح البليهي.
- الأدلة المادية على وجود الله " محمد متولي الشعراوي.
- كي لا يستمر الهوان، د مهدي علي قاضي.
- الاستدلال بالقرآن على فرضية التطور الموجه (قراءة نقدية) سلطان العميري.
- ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
- مجموعة الفتاوى لابن تيمية. دار الوفاء.

فهرس الموضوعات



تقرأ في هذا الكتاب

الإلحاد هو التحدي القادم، فقد أصبح اليوم حقيقة واقعية وأن المصاولة الفكرية مع الإلحاد باتت فريضة قائمة وستجد في هذا الكتاب الإجابة على أسئلة حيرت الكثيرين :

- لماذا خلق الله الخلق ؟
- لماذا خلق الله الشر ؟
- هل نظرية دارون حقيقة علمية أم خرافة وهمية ؟
- ما هو التطور الموجه ؟
- هل التطوريون هم الدراونة ؟
- كيف بدأ خلق الكون ؟
- ما هي نظرية إنفجار الكون العظيم ؟
- هل يوجد تعارض بين النظريات العلمية الحديثة وبين الدين ؟
- من هم الملحدون، وهل هم أنواع مختلفة ؟



011 40 47 98 97
daralshabab.alex@gmail.com
دار الشباب